



تتضمن دراسة لصلح الإمام الحسن وثورة الإمام الحسين (عليهما السلام)

على ضوء سنن التطور التاريخي في القرآن الكريم

سماحة آية الله الشيخ محسن الأراكي



سنن القيادة الإلهية في التاريخ

تتضمّن دراسة لصلح الإمام الحسن وثورة الإمام الحسين عليهما السلام

على ضوء سنن التطوّر التاريخيّ في القرآن الكريم

سماحة آية الله الشيخ محسن الأراكي


بسم الله الرحمن الرحیم

كلمة الناشر

قال الله عزّ من قائل:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1].

وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

«ذَلِكَ الْقُرْآنُ فاسْتَنْطِقُوهُ وَلَنْ يَنْطِقَ وَلكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ أَلا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي وَدَوَاءَ دَائِكُمْ وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ»[2].

سنن التاريخ في القرآن

إنَّ مفهوم سنن التاريخ يُعدّ من المفاهيم القرآنيّة الأساسيّة، ويعتبر فتحاً عظيماً للقرآن الكريم؛ فإنّ القرآن الكريم - في حدود ما

(١) سورة ق: ٣٧.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٨.

نعلم - أوّل كتاب عرفه الإنسان أكّد على هذا المفهوم، وكشف عنه، وأصرَّ عليه، وقاوم - بكلّ ما لديه من وسائل الإقناع والتفهيم - النظرة العفويّة، أو النظرة الغيبيّة الاستسلاميّة في تفسير الأحداث.

الإنسان الاعتياديّ كان يفسِّر التاريخ بوصفه كومة متراكمة من الأحداث، يفسّره على أساس الصدفة تارةً، وعلى أساس القضاء والقدر والاستسلام لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تارةً أخرى. لقد قاوم القرآن الكريم هذه النظرة العفويّة الاستسلاميّة، ونبَّه العقل البشريّ إلى أنّ هذه الساحة لها سنن، ولها قوانين، ولكي تستطيع أن تكون إنساناً فاعلاً مؤثّراً، لابدَّ لك من أن تكتشف هذه السنن، وتتعرّف على تلك القوانين؛ لكي تستطيع أن تتحكّم فيها، وإلا تحكّمت هي فيك، وأنت مغمض العينين. افتح عينيك على هذه القوانين؛ لكي تكون أنت المتحكّم فيها، وليس العكس.

هذا الفتح القرآنيّ الجليل، هو الّذي مهَّد إلى تنبيه الفكر البشريّ بعد ذلك بقرون إلى أن تجري محاولات لفهم التأريخ فهماً علمياً. وبعد نزول القرآن بثمانية قرون، بدأت هذه المحاولات على أيدي المسلمين أنفسهم، فقام ابن خلدون بمحاولة لدراسة التأريخ، وكشف سننه وقوانينه، ثمّ بعد ذلك بأربعة قرون - على أقل تقدير - اتّجه الفكر الأوربيّ في بدايات ما يسمّى بعصر النهضة، نحو تجسيد هذا المفهوم الّذي ضيّعه المسلمون، حيث لم يتوغّلوا إلى أعماقه.

وبدأت لدى الغربيّين أبحاث متنوّعة ومختلفة حول فهم التأريخ، وفهم سننه، ونشأت على هذا الأساس: اتّجاهات مثاليّة، ومادّيّة، ومتوسّطة، ومدارس متعدّدة، كلّ واحدة منها تحاول أن تحدّد هذه السنن التاريخيّة. وقد تكون المادّيّة التاريخيّة أشهر هذه المدارس وأوسعها تغلغلاً، وأكثرها تأثيراً في التأريخ نفسه.

إذن، كلّ هذا الجهد البشريّ - في الحقّيقة - هو استمرار لهذا التنبيه القرآنيّ، ويبقى للقرآن الكريم مجده في أنّه طرح هذه الفكرة لأوّل مرّة على ساحة المعرفة البشريّة[1].

إنّ ممّا يَحُزّ في نفس الباحث المسلم - وهو يقلّب طرفه في المكتبة الإسلاميّة - ألاّ يجد إلّا النزر اليسير من المصادر الّتي تُعنى بعلم الاجتماع الإسلاميّ، ويزداد المرء ألماً وحسرة، حينما يجد مصنّفات غربيّة - بمخلتف اللغات - لا عدّ لها ولا حصر في هذا المضمار الحيويّ المهمّ. وقد نسج على منوالهم جُلّ من كتبوا في هذا الحقل في العالمين العربيّ والإسلاميّ.

وحينها يطلّ سؤال أشدُّ إيلاماً من وخز الضمير: تُرى أين هو تراث الفكر الاجتماعيّ لأمّة قال عنها القرآن الكريم:

---

(١) عن كتاب السنن التأريخيّة في القرآن الكريم، للإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر ﷺ، ص٦٢، دار التعارف، لبنان.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ..﴾[(١)] ؟!

أين هو- على أقلّ تقدير- الموروث الفكريّ الاجتماعيّ لأمّة استطاعت من خلال اعتناقها للإسلام إزاحة قطبي قيادة عالم يومذاك؛ وهما الامبراطوريّة الفارسيّة والامبراطوريّة الرومانيّة؟! أمّة حكمت العالم لقرون متطاولة من الأندلس غرباً إلى حدود الصين شرقاً؟ أليس من خلل التوازن بمكان ألّا يكافئ نتاج الفكر الاجتماعيّ للحضارة الإسلاميّة - برمّتها - ولو بعضاً من عطاء النبوة الّذي استمرّ لثلاثة وعشرين عاماً، وعطاء القرآن العظيم الّذي ما زال بين ظهرانيها حتّى هذا اليوم؟!

ولأنّ رسالة الإسلام هي الرسالة السماويّة الخاتمة الّتي لم تحدّد بزمان ومكان، نزلت على رسول الله للناس كافّة، وهم مادّة التغيير، فقد اختصّ القرآن العظيم بالكثير من السنن والضوابط الّتي تحكم وتنظم المجتمع الإسلاميّ والإنسانيّ عموماً، وأكّد على السنن والضوابط في الساحة التاريخيّة، وإمكانيّة استنطاقها لاستجلاء الدروس والعبر، وصيانةً للمجتمع الإنسانيّ والإسلاميّ من التفكك والانهيار. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ

---

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

يَتَذَكَّرُونَ﴾[١].

أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قرآنه العظيم على الرسول الأمين محمّد ﷺ كتاب هداية، ومنهج حياة؛ ليخرج الناسّ كافّة من الظلمات إلى النّور. يقول عَزَّ مِنْ قَائِلٍ - في مطلع سورة إبراهيم عليه السلام - :

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٢].

ونجد خوارق الإعجاز والبلاغة تتجلّى في الآية آنفة الذكر؛ إذ جمعت عناصر التحوّل التاريخيّ الثلاثة؛ وهي: الرسالة، والرسول، والناس، وكذلك: الهدف، والغاية من نزول الهداية الإلهيّة إلى بني البشر؛ ألا وهي: انتشال الناس من وهدات الضياع، والذلّ، والاستعباد إلى سموّ المجتمع العابد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٣].

و على مدى التأريخ كلّه، كانت العلاقة بين الإمامة والأمة - طاعةً أو معصيةً - هي الّتي رسمت مسيرة حركة التأريخ. وبالتالي شُيّدت عليها كلّ صروح الحضارة الإنسانيّة الّتي عرفها البشر.

و من أسفٍ ألّا تحظى مآسي أمّة الإسلام الّتي عصفت بها منذ

---

(١) سورة الزمر: ٢٧.

(٢) سورة إبراهيم: ١.

(٣) سورة إبراهيم: ١.

قرون طويلة، وما حلّ بأمّة الإسلام لم تحظ بدراسة تحليليّة وفق السنن التاريخيّة الّتي أكّد القرآن الكريم على استنطاقها، واستخلاص الدروس منها، وصولاً إلى يوم الخلاص لاستنقاذ أمّة الإسلام ممّا هي فيه.

صلح الحسن وثورة الحسين عليهما السلام؛ قراءة في المنهج

في مصنَّفه هذا «صلح الحسن وثورة الحسين عليهما السلام من منظور السنن التاريخيّة في القرآن الكريم» ينهج العلامة الشيخ محسن الأراكيّ - كما في مصنّفات له أخرى - أسلوب إخضاع ظواهر اجتماعيّة عصفت بأمّة الإسلام منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله للتحليل والاستقراء. وبعد تشخيصها، ينطلق إلى القرآن الكريم، وهو كتاب الله الّذي ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾[1] ليبدأ معه عملية حوار، واستنطاق لسننه التاريخيّة الّتي أقرّها الله عزّ وجلّ، وصمّمها، ووضعها كونيّاً؛ لا تشريعيّاً. فهو كتاب هداية، ومنهج حياة؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النّور، ولا زال القرآن يصدح هاتفاً بالبشريّة متسائلاً:

﴿أفلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2].

---

(١) سورة فصّلت: ٤٢.

(٢) سورة محمّد: ٢٤.

وكما يقول عنه سيّدنا أمير المؤمنين عليه السلام:

«ذَلِكَ الْقُرْآنُ فاسْتَنْطِقُوهُ وَلَنْ يَنْطِقَ وَلكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ أَلا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي وَدَوَاءَ دَائِكُمْ وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُم»[١].

إنّه منهج عقليّ، وأسلوب رصين بديع، ابتكره وصنّف وتألّق فيه: رائد الفكر الإسلاميّ المعاصر **الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر** قدس سره الّذي تتلمذ عليه العلّامة الشيخ الأراكيّ.

يلاحظ المصنّف المشكلة الاجتماعيّة المعاصرة، بل ربّما استحضرها من رفوف التاريخ، إذا ما كانت قائمة، ليبدأ عمليّة التحليل والتشخيص، ومن ثمّ العودة إلى القرآن العظيم لاستنطاقه، وتحكيمه؛ لأنّه ﴿يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٢]، وبالتالي: تحديد الموقف القرآنيّ للمعضلة القائمة.

ينطلق العلّامة الأراكيّ من واقع الحياة، ومشاكلها المعاصرة، من المأساة والمأزق المحيط بأمّة الإسلام، ملتجِئاً إلى القرآن الكريم، مستنطقاً إياه الحلّ الناجع:

«ذَلِكَ الْقُرْآنُ فاسْتَنْطِقُوهُ .. أَلا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٨.

(٢) سورة الإسراء: ٩.

عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُم»[١].

ولعلّ سؤالاً يطرح نفسه هنا؛ وهو: لماذا يعود العلّامة الأراكيّ إلى فتح ملفّ صلح الإمام الحسن عليه السلام، وثورة الإمام الحسين عليه السلام، وهما مقطعان تاريخيّان حصلا قبل أكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان؟

الجواب: بغضّ النظر عن حقّ الباحث - كأيّ باحث - في الكتابة عن أيّة قضيّة، وخلال أيّ مقطع زمنيّ في التاريخ، فإنّ السبب الرئيس في وقوع هذين الحدثين المهمّين، وهما من أهمّ مفاصل التاريخ، والمسيرة الإسلاميّة، هو نمط العلاقة بين الإمامة والأمّة، بين القيادة الإسلاميّة والمسلمين أنفسهم.

فحينما أطاعت أمّة الإسلام الإمامة الإلهيّة - ممثّلة بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في المدينة المنوّرة - منحها الله النصر المؤزّر، وأقيمت دولة الإسلام الكبرى لأوّل مرّة في تاريخ البشريّة، وجرت عليها سنّة إلهيّة، هي «سنّة الاستخلاف»، وحينما نكصت الأمّة، وتولّت عن نصرة الإمامة - ممثّلة بالامام الحسن الزكيّ عليه السلام، ومن بعده عن نصرة الحسين عليه السلام - جرت عليها «سنّة الاستبدال»، وفق سنن التأريخ الّتي قنّنها الحقّ سبحانه وتعالى، فتسلّط عليهم خلفاء وولاة أمثال: يزيد بن معاوية، والحجّاج، وغيرهم.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٨.

والعلّامة الأراكيّ مَثَله مثل أيّ مسلم غيور يعيش اليوم مأساة الأمّة الإسلاميّة - تشتّتاً، وتمزّقاً، ونهباً للثروات، واحتلالاً للأرض، واستباحةً للاعراض والمقدّسات في معظم بقاع عالم الإسلام من قبل الكافرين - فقد عايش كذلك، أعظم نصرين تحقّقا للمسلمين خلال العقدين الأخيرين، وكانا بفضل طاعة الأمّة، ونصرتها للقيادة الإسلاميّة، كما حصل في إيران، إثر بيعة الأمّة لقائدها وإمامها الخمينيّ الراحل ﵀، فسقط أعتى نظام في المنطقة برمّتها، كان مدعوماً من قبل القوّتين الأعظم يومذاك، وانتصرت الفئة المؤمنة القليلة كذلك في جنوب لبنان على الكيان الصهيونيّ الّذي لم يهزم في أيّة حرب مع جيرانه، منذ ما يزيد عن نصف قرن.

لقد انتصرت الفئة المؤمنة في لبنان، بفضل طاعتها للقيادة الإسلاميّة، وثباتها، ونصرتها للإمامة، فكان النصر المؤزّر في مطلع هذا العام.

إنّ مفاهيم من قبيل: «ميثاق الطاعة والنصرة» للإمامة والقيادة، و«الاستخلاف والاستبدال»، و«سنّة الغيبة» في الإمامة والقيادة، و«الإمامة المستخلفة»، و«الأمّة المستخلفة»، و«سنّة الحضور والتصدّي»، وغيرها من المفاهيم ذات العلاقة بالقيادة والأمّة، يؤصّلها المصنّف قرآنياً أوّلاً، ثمّ يستنطق كتاب الله عنها، فيأتي بالأمثلة والشواهد القرآنية، وبالتالي: يحاول استخلاص العبر

والدروس، ومن ثمّ حلولاً ناجعة لمشاكل الأمّة المعاصرة، ومنها بالتأكيد قضيّة القيادة، وطاعة الأمّة لها، وما وعد الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الصابرين من النصر والقاعدين عن نصرة دين الله بالخذلان والذل:

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1].

صلح الحسن وثورة الحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: قراءة ..

يبدأ العلامة الأراكيّ بحثه بموضوعين؛ هما: «سنّة القيادة الإلهيّة» في التاريخ، و«سنّة المرحليّة في غيبة القيادة الإلهيّة»؛ إذ تتجلّى رعاية الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمجتمع الإنسانيّ من خلال القيادة العادلة، وهذه هي سنّة الإمامة المستمرة. يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2].

والسنّة الثانية: هي أنّ الخلافة الإلهيّة تبدأ فرديّة لتنتهي جماعيّة؛ إذ إنّ الغاية هي الاستخلاف الجماعيّ؛ حيث يقول عَزَّ مِنْ قَائِل:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾[3].

---

(١) سورة الأحزاب: ٦٢.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

(٣) سورة النور: ٥٥.

وتتحقّق من خلال الجهد التربويّ للقيادة الإلهيّة، لتنشئة أمّة تقيم العدل، والمعروف، وعمارة الارض. وحينما تفي الأمّة بمثياق نصرتها وطاعتها للقائد:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾[1].

أمّا **السنّة الثالثة:** فهي «سنّة الحضور والتصدّي»، وطرفها الأوّل: حضور القائد الإلهيّ؛ أي: تصدّيه لقيادة الأمّة مباشرةً، إثر استجابتها لنصرة الحقّ، وإقامة العدل في الأرض، جهاداً بالنفس، وبذلاً بالنفيس. وطرفها الثاني: هو حضور الأمّة؛ أي: تواجدها الفعليّ والمباشر في طاعة القائد الإلهيّ، وعندها ستستمرّ النعمة الإلهيّة التامّة على هذه الأمّة.

أمّا **السنّة الرابعة** من سنن القيادة الإلهيّة: فهي «سنّة الغَيبة»، وهذه تجري إذا ما نكصت الأمّة عن نصرة القيادة الإلهيّة، فعندها سَتَنحسِر النعمة الإلهيّة لتجري سنّة الغيبة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: ٩٦.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٨.

و يُسهب المصنّف في إيضاح مفهوم النعمة الكبرى؛ وهي الإمامة الإلهيّة الّتي تمنّ بها السماء على إنسان الأرض، وأنّ استمرارها رهين بطاعتها، ونصرتها، وحمايتها. وهذا، هو الشكر لهذه النعمة، أمّا الكفر بها فهو الإعراض والخروج عن طاعتها، والنكوص عن نصرتها. ويرى المصنّف أنّ نظام الخلق الإلهيّ لا يتّسع للمجتمع الإنسانيّ إلّا في حالتين:

الأولى: إقامة نظام العدل الإلهيّ، وطاعة القيادة الإلهيّة، وعندها ينسجم مع وحدة نظام الخلق الّذي يحكم الكون كلّه.

والثانية: أن يكون ممهّداً لقيام المجتمع العادل؛ وإن خرج عن طاعة القيادة الإلهيّة إلّا أنّه لم يفقد أهليّته، وقابليّته للتمهيد بقيام المجتمع العادل؛ ولو في الأجيال اللاحقة، وعندها تجري «سنّة الإمهال».

وفي الموضوع الثاني، يتطرّق العلّامة الأراكيّ إلى سنّة المرحليّة في غيبة القيادة الإلهيّة:

المرحلة الأولى: «غيبة التجميد»؛ حيث يجمّد القائد الإلهيّ نشاطه القياديّ، ويعتزل ساحة العمل القياديّ علناً، وذلك بسبب إعراض الأمّة عن طاعة القائد الإلهيّ، وبقاء فرصة محدودة للعمل في أوساط الأمّة.

المرحلة الثانية: «غيبة الهجرة»، وتحصل بانتقال القائد من بيئته الأولى إلى بيئة أكثر تجاوباً، وحرّيّة للدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المرحلة الثالثة: «غيبة الاستتار»، وتحصل إثر انعدام فرصة عمل القيادة الإلهيّة كاملاً، وضمن مرحلة زمنيّة محدّدة. وهذه الغيبة، تلازمها عادةً سنّة الاستبدال الّتي تجري بحقّ الأمّة، ومثالها: ما جرى على بني إسرائيل، إثر رفع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعيسى بن مريم عليه السلام.

ثمّ يعرض المؤلّف لصلح الإمام الحسن عليه السلام على ضوء سنن القيادة الإلهيّة، فينصّ على أنّ سنّة انحسار القيادة الإلهيّة، وغيبتها، كما نفّذت في الأنبياء السابقين، وأوصيائهم، فقد نفّذت بشأن الرسول الأمين صلى الله عليه وآله، وأوصيائه المعصومين عليهم السلام، وقد جرت سنّة الهجرة بعدما همّت قريش بقتله صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْه، واستمرّ تنفيذ السنن الإلهيّة في الأئمّة عليهم السلام بدءً من أمير المؤمنين عليه السلام، وحتّى خاتمهم الحجّة المنتظر عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيف، فيما جاء صلح الإمام الحسن عليه السلام وفقاً لهذه السنن.

ويشير المصنّف إلى كيفيّة تنفيذ سنّة التجميد في القيادة الإلهيّة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، ومقتطفات من أقوال أمير المؤمنين عليه السلام.

ومع عودة الأمّة إلى طاعة الرسول صلى الله عليه وآله، واجتماعها حول أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفّان، جرت سنّة الحضور والتصدّي للقيادة؛ إلّا أنّ ذلك لم يدم طويلاً، فبدأت الأمّة بالنكوص عن طاعة القيادة مرّة أخرى، ثمّ استشهد أميرالمؤمنين عليه السلام ليجد الإمام الحسن عليه السلام بأنّ الأمّة قد نُخرت إرادتها، وتحوّل واقعها إلى أمرٍ واقع على صعيدي الطاعة والنصرة، فجرت سنّة التجميد مرّة

أخرى. وفي موضوعه عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام من منظور السنن التاريخيّة في القرآن الكريم، يتعرّض العلّامة الأراكيّ إلى سنّتين تاريخيّتين مهمّتين جداً؛ هما: «سنّة الاستخلاف»، و«سنّة الاستبدال».

هاتان السنّتان تجريان على الأمّة، تبعاً لطاعتها، أو معصيتها للقائد الإلهيّ على التوالي؛ فالأمّة الخليفة، يستخلفها الحقّ سبحانه وتعالى متى ما وفت ببيعتها، والتزمت نصرة القائد الإلهيّ، بينما تجري على الأمّة سنّة الاستبدال، إذا ما نكصت الأمّة، وخذلت القائد الإلهيّ.

ويعرض المؤلّف بأنّ مفهومي الاستبدال والاستخلاف مختصّان بمفهومي السلطة والحكم، ويؤصّل لتعريف السلطة والحكم ومعناهما، ويوضّح كذلك العلاقة بين مفهومي الخلافة والشهادة، وأنّ العلاقة بينهما علاقة تلازميّة؛ فالخلافة تنسب لله عزّ وجلّ، أمّا الشهادة، فتكون على الآخرين؛ أي: على الناس، فالإمام خليفة عن ربّه، وهو شاهد على أمّته:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

ويورد المصنّف شواهد قرآنيّة تدلّ على أنّ مفهوم «العزّ» يقترن دائماً بطاعة الأمّة للقائد الإلهيّ، فيما يقترن مفهوم «الذلّ» بمعصية

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

الأمّة للقائد الإلهيّ.

ويتحدّث عن الإمامة المستخلفة (الإمام الحسين عليه السلام)، وكيف وفت بميثاقها مع الله سبحانه وتعالى، ونزلت إلى ساحة المواجهة مع الظالمين؛ إلّا أنّ الأمّة نكصت، وتخلّت عن نصرة الإمامة الإلهيّة، فمضى عليه السلام شهيداً، وحينها جرت سنّة الاستبدال على الأمّة، فتسلّط عليها ولاة الجور والظلم؛ أمثال: يزيد، وبني مروان، والحجّاج، وجرت سنّة الغيبة بمراحلها على الإمامة الإلهيّة من بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام حتّى يومنا هذا، والفرصة قد تسنح - من جديد - لجريان سنّة الحضور والتصدّي، فيما لو وفت الأمّة ببيعتها، وعادت لنصرة القيادة.

ختاماً، يبقى للإمام الشهيد محمّد باقر الصدر قدس سره مجده، بأنّه كان السبّاق لتنبيه العقل المسلم إلى استيعاب مفهوم «سنن التأريخ في القرآن»، والّتي عبّر عنها قدس سره بـ «الفتح القرآنيّ الجليل»، كما أنّ «أسفار» تلميذه العلّامة الشيخ الأراكيّ، واستنطاقه للقرآن العظيم، وتحكيمه في قضايا إسلاميّة مصيريّة؛ كالقيادة، والأمّة، والعلاقات بينهما، تعدُّ جهداً ثرّاً، متميّزاً، ومشكوراً، وبأمل اللقاء بنتاجاته المتسلسلة قريباً عن «المجتمع الإسلاميّ من منظور قرآنيّ».

بيد أنّ شؤون أمّة الإسلام وشجونها كبيرة وكثيرة، وما زالت جراحها نازفة، ما يلزم تخصّصاً قرآنيّاً عميقاً في علم الاجتماع على

مستوى الحوزات والجامعات العلميّة المتخصّصة من جهة، وأن يشمّر العلماء والمفكّرون عن سواعد الجدّ، لاكتشاف كنوز هذا «الفتح القرآنيّ الجليل» من الجهة الأخرى، خدمةً للإنسانيّة جمعاء.

مؤسّسة بوك إكسترا
العالميّة
للنّشر والتوزيع

سنن القيادة الإلهيّة في التاريخ
مع دراسة لصلح الإمام الحسن عليه السلام في ضوئها

* من سنن التاريخ في القرآن.

* سنن القيادة الإلهيّة في التأريخ .

* سنّة الإمامة المستمرّة.

* الخلافة الإلهيّة تبدأ فرديّة، ثمّ تنتهي جماعيّة.

* سنّة الحضور والتصدّي في القيادة.

* سنّة الغيبة في القيادة .

* مراتب انحسار النعمة الإلهيّة التامّة (القيادة) .

* نظام الخلق الإلهيّ، والمجتمع الإنسانيّ .

* نماذج قرآنية من تنفيذ سنّة الغيبة في القائد الإلهيّ.

* سنّة المرحلية في غيبة القائد.

- غيبة التجميد.

- غيبة الهجرة.

- غيبة الاستتار .

- سنّة الاستبدال.

* صلح الإمام الحسن عليه السلام على ضوء سنن القيادة الإلهيّة.

- تنفيذ سنّة التجميد بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله .

- عودة الأمّة إلى طاعة الرسول بعد مقتل عثمان .

- واقع المجتمع الإسلاميّ إثر ابتعاده عن سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله .

- واقع المجتمع في خلافة الإمام الحسن عليه السلام .

- صلح الإمام الحسن عليه السلام ، وسنّة التجميد.

تمهيد

يمكن القول: إنّ أهمّ المصادر الّتي ينبغي مراجعتها لفهم سيرة المعصومين عليهم السلام هو القرآن الكريم؛ لأنّ الصلة بين القرآن الكريم وسيرة المعصومين هي صلة النظريّة والتطبيق، وكما يمكن التعرّف على تفاصيل النظريّة من خلال التطبيق، كذلك العكس؛ فإنّ تفسير التطبيق تفسيراً واقعيّاً شاملاً، لا يمكن إلّا من خلال النظريّة، وعلى ضوئها.

وانطلاقاً من هذا المبدأ، سوف نقوم بدراسة موجزة لمقطع تاريخيّ مهمّ من سيرة المعصومين عليهم السلام؛ وهي صلح الإمام الحسن صلوات الله عليه والّذي يُعدُّ بحقّ من أهمّ المقاطع التاريخيّة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وسوف نحاول إلقاء الضوء على هذا الحدث التاريخيّ المهمّ من منظور سنن التأريخ في القرآن الكريم، ومفاهيمه الّتي فسّر بها الكون، والمجتمع، والتاريخ.

١. سنن القيادة الإلهيّة في التاريخ

من السنن التاريخيّة الّتي تحكم المجتمع الإنسانيّ - حسب الرؤية القرآنية - هي السنن الّتي تحكم العلاقة بين القيادة الإلهيّة والمجتمع الإنسانيّ على مرّ التاريخ. وهي سنن متعدّدة، سوف نتعرّض لأربع منها باختصار، ثمّ نلقي الضوء من خلالها على صلح الإمام الحسن عليه السلام، لنفهم هذا الحدث التاريخيّ العظيم على ضوئها.

١.١. سنّة الإمامة المستمرّة

من السنن الإلهيّة في المجتمع الإنسانيّ، رعاية الله المستمرّة من خلال القيادة العادلة الّتي تمثّل خلافة الله في الأرض. قال سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1].

ومن الواضح عموم هذا الجعل لكلّ زمن؛ فإنّ الآية تحكي قراراً إلهيّاً عامّاً بأن يكون له خليفة في الأرض، ولم يكن آدم عليه السلام إلّا

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

النموذج الأوّل لهذه الخلافة الإلهيّة، وتعدّدت بعده الخلافة الإلهيّة متتالية في كلّ عصر، وهذا ما أكّدته الآيات الكريمة الأخرى؛ فقد قال سُبحَانَهُ وَتَعالىٰ:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[2].

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[3].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾[4].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[5].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[6].

---

(١) سورة البقرة: ١٢٤.

(٢) سورة ص: ٢٦.

(٣) سورة النحل: ٣٦.

(٤) سورة النساء: ٦٤.

(٥) سورة الحديد: ٢٥.

(٦) سورة الأنبياء: ٧٣.

و خلافة الله تعني أن يقوم الخليفة بمهمّة إدارة الأرض، وإعمارها، وفقاً لشريعة الله ونهجه، فإنّ خلافة كلّ صاحب أمر، إنّما تعني أن يقوم الخليفة بتنفيذ أمره، والقيام مقامه في تحقيق أغراضه، وتنفيذ مقاصده، وهذه هي المسؤوليّة الّتي اضطلع بها الأنبياء على مرّ الزمن، باعتبارهم خلفاء الله في أرضه. وعندما ختمت النبوّة بنبيّنا محمّد ﷺ، استمرّت الخلافة الإلهيّة - حسب القرار الإلهيّ بجعل الخليفة في الأرض- في الأئمّة الطاهرين من أهل بيته عليهم السلام .

٢.١. الخلافة الإلهيّة تبدأ فرديّة ثمّ تنتهي جماعيّة

إنّ الخلافة الإلهيّة تبدأ فرديّة، وتنتهي جماعيّة، فالغاية الّتي أرادها الله سبحانه وتعالى هي الاستخلاف الجماعيّ؛ كما قال سبحانه وتعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾[١].

غير أنّ هذه الخلافة الجماعيّة إنّما تبدأ بخلافة القائد الإلهيّ المعصوم الّذي يعيّنه الله سبحانه وتعالى إماماً على الناس، ومن خلال الجهد التربويّ والقياديّ الّذي يقوم به الإمام تنشؤ أُمّة بشريّة، تقيم العدل، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ

---

(١) سورة النور: ٥٥.

عَنِ الْمُنكرِ﴾[١].

وعبر هذه المسيرة التربويّة التكامليّة، تنبثق خلافة جماعيّة، تكون الأمّة فيها بقائدها ومقودها، برئيسها ومرؤوسها، بإمامها ومأمومها، شهداء على العدل والحقّ، وخلفاء لله على أرضه:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٢].

ثمّ إنّ الخلافة الجماعيّة لا تجد سبيلها إلى الواقع إلاّ من خلال الإرادة الجماعيّة للأمّة على النصرة، والطاعة للقيادة الإلهيّة، وعندئذٍ تتحقّق الغاية الكبرى من خلافة الإنسان على الأرض، من عمارة الأرض، والرفاه العامّ، والسعادة القصوى. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾[٣].

أمّا اذا أعرضت الأمّة عن القيادة الإلهيّة، وامتنعت عن طاعتها والخضوع لها، فهي الّتي تتحمّل مسؤوليّة النتائج المرّة الّتي سوف تجنيها من هذا الإهمال والاعراض.

---

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

(٢) سورة البقرة: ١٤٣.

(٣) سورة الأعراف: ٩٦.

وهذا ما جاء في ذيل الآية الآنفة الذكر:

﴿وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[١].

وليست هذه النهاية الأليمة إلّا حصيلة الإعراض عن هداية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وترك طاعة القيادة الإلهيّة. وبهذا، فإنّ الإنسان هو المسؤول عن النتائج المرّة الّتي تنجم عن سوء اختياره. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[٢].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[٣].

وفي هاتين الآيتين، نجد أنّ السنّة الإلهيّة ترعى المجتمع الإنسانيّ، وتهتمّ بتربيته، وإعداده لقبول مسؤوليّة الخلافة الإلهيّة، وإطاعة القائد الإلهيّ الخليفة؛ لإقرار العدل والتقوى على أرض الله، فتحكي لنا ما يبتلي به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أُمم الأنبياء، توعيةً لهم، وتذكيراً،

---

(١) سورة الأعراف: ٩٦.

(٢) سورة النور: ٥٤.

(٣) سورة الأعراف: ٩٤- ٩٥.

وتربيةً، وإعداداً، عسى أن يتحمّلوا مسؤوليّاتهم الكبرى في طاعة الأنبياء، ونصرتهم، في سبيل إقامة المجتمع الإلهيّ العادل على وجه الأرض.

وقد اعتبر القرآن الكريم القيادة الإلهيّة الّتي يمنّ الله بها على المجتمع البشريّ «إتماماً للنعمة الإلهيّة» على الإنسان، فجاء التأكيد على كونها هي «النعمة التامّة»، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - تعبيراً عن لسان نبيّه يعقوب عليه السلام، وهو يخاطب ولده يوسف عليه السلام -:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾[1].

و قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - بعد إعلان النبيّ صلى الله عليه وآله عن إمامة عليّ عليه السلام -:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[2].

و قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٠ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ

---

(١) سورة يوسف: ٦.

(٢) سورة المائدة: ٣.

رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾[١].

و«تمام النعمة على القائد» هي الرعاية الإلهيّة، والتسديد الربانيّ الّذي يؤهّله للقيادة، ويبوّؤه منزلة الإمامة، و«تمام النعمة على المجتمع البشريّ» هو تأهيله للاضطلاع بمهمّة الخلافة الإلهيّة على وجه الأرض، وذلك بتعيين القائد الإلهيّ الّذي يتولّى قيادته في هذا السبيل.

٣،١. سنّة الحضور والتصدّي في القيادة الإلهيّة

و«سنّة الحضور» في القرآن الكريم تعني: تصدّي القيادة الإلهيّة لقيادة الأمّة، تصدّياً فعليّاً مباشراً، عندما تستجيب الأمّة لدعوة القائد الإلهيّ إياها إلى نصرة الحقّ وإقامة العدل على وجه الأرض، وتلبّي دعوته للحضور في ساحات الجهاد والنصرة، وتتفاعل معه بالطاعة لأمره، والانقياد إلى قيادته.

وسنّة الحضور هذه، مفردة من مفردات القانون الإلهيّ الّذي عبّرت عنه الآية الشريفة:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٢].

---

(١) سورة البقرة: ١٥٠-١٥١.

(٢) سورة إبراهيم: ٧.

جاءت هذه الآية بعد آيات تشير إلى سنّة حضور القيادة الإلهيّة في مصداقها المتمثّل في موسى عَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَام، قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٥ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[١].

فسنّة الحضور القياديّ تبدؤ انطلاقاً من سنّة الرحمة الإلهيّة الّتي أشار إليها ربّنا بقوله:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٢].

ولكنّ استمراريّة هذه الرحمة، ودوامها، تجري وفق سنّة أخرى عبّرت عنها الآية الكريمة:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٣].

ومعناها: أنّ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى جرت سنّته على الرحمة الواسعة الّتي بموجبها يبتدئ عباده بالنعم، فيبتدئ بإرسال القائد الإلهيّ، باعتباره

---

(١) سورة إبراهيم: ٥-٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٦.

(٣) سورة إبراهيم: ٧.

النعمة الكبرى الّتي ينال الناس بشكرها قمّة السعادة والكمال، فإن شكر الناس هذه النعمة، استمرّت لهم، وزادها الله بإنزال المزيد من النصر والفتح والتأييد والتسديد، وإن كفر الناس هذه النعمة، جرت عليهم السنّة الأخرى الّتي سوف نتعرّض لها - قريباً - ؛ وهي «سنّة الغيبة».

ثمّ إنّ سنّة الحضور لها طرفان:

الطرف الأوّل: هو القائد الإلهيّ الّذي يبتدئ الحضور بين الأمّة، بدعوتها إلى نصرته، وتربيتها، وتوجيهها، بما يؤهّلها للاضطلاع بمهمّة الخلافة الإلهيّة على وجه الأرض؛ من إقامة العدل فيها، وإعمارها، وتنميتها.

والطرف الثاني: هي الأمّة المرشّحة لخلافة الله في الأرض، فإذا حضر القائد الإلهيّ في ساحة الدعوة إلى الله، ودعا الناس إلى طاعة الله، وإقامة العدل الإلهيّ على وجه الأرض، ثمّ استجابت الأمّة لهذه الدعوة، فحضرت بدورها في ساحة النصرة للقائد الإلهيّ، ولبّت دعوته إلى إقامة العدل، ونصرة الدين الإلهيّ، اكتملت بذلك مقوّمات النصر الإلهيّ لهذه الأمّة، واستحقّت وسام الخلافة الإلهيّة، ونزل عليها الإمداد الإلهيّ بالنصر والتأييد، وتبوّأت مكانها اللائق بها؛ وهو «الشهادة على سائر الأمم»؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١].

فإن استمرّت الأمّة في حضورها هذا، استمرّت النعمة الإلهيّة التامّة لها، وإن نكصت وتراجعت، تقلّصت النعمة الإلهيّة، وانكمشت بقدر تراجعها وانكماشها عن الحضور في ساحة النصرة للقائد الإلهيّ، وتلبية دعوته. ووفقاً لسنّة الحضور هذه، نجد أميرالمؤمنين عليه السلام يقول:

«أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أن لا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[٢].

فالحضور الجماهيريّ للأمّة، وإعلان استعدادها لطاعة القائد الإلهيّ ونصرته، بعد نكوصها وانكماشها، استوجب عودة القائد إلى الحضور الفعليّ على الصعيد السياسيّ، ومباشرته لقيادة الأمّة قيادة فعليّة، تطبيقاً لسنّة الحضور الّتي بموجبها يتوجّب على القائد الإلهيّ أن يلبّي دعوة الجماهير المسحوقة، الّتي تعلن عن حضورها هي بدورها في ساحة النصرة للقائد، وعن طاعتها وولائها له؛ كما قال

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٣، ص ٥٦، طبعة الأعلميّ، بيروت.

أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

«لَوْلا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ .. لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا»[١].

٤،١. سنّة الغيبة في القيادة الإلهيّة

أسلفنا أنّ القيادة الإلهيّة بحسب المنطق القرآنيّ هي النعمة الكبرى الّتي يمنّ الله بها على عباده في الأرض، وقد أشرنا بإيجاز إلى أنّ النعمة الإلهيّة التامّة المتمثّلة بالقيادة الإلهيّة، تحكمها بعد حلولها بين الناس سنّة إلهيّة أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٢].

و هنا ينبغي – تمهيداً لتوضيح سنّة الغيبة – أن نقدّم مزيداً من التوضيح لهذه السنّة الإلهيّة على أساس من بيّنات القرآن العظيم، فقد تعرّض القرآن إلى هذه السنّة في مواضع عديدة، نشير إلى بعضها:

منها قوله سبحانه وتعالى في أواسط سورة إبراهيم على نبيّنا وآله وعليه السلام، الّتي بدأها سبحانه وتعالى بالإشارة إلى نعمة القيادة الإلهيّة على بني إسرائيل المتمثّلة في إمامة موسى على نبيّنا وآله وعليه السلام، قال سبحانه وتعالى –

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة إبراهيم: ٧.

مؤكّداً على السنّة الإلهيّة الّتي تحكم هذه النعمة التامّة - :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[1].

تقرير واضح للسنّة الإلهيّة الّتي أشير إليها في بدايات السورة:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2].

وهي في كلمة موجزة: أنّ القيادة الإلهيّة - وهي النعمة الكبرى الّتي تمُنُّ بها السماء على إنسان الأرض - إنّما تستمرّ في مباشرتها لقيادة الأمّة، ومدّها بالعطاء الإلهيّ، المتمثّل في إدارتها، وتوجيهها، وهدايتها نحو السعادة الكبرى، عندما تشكر الأمّة هذه النعمة، فتواصل طاعتها للقيادة الإلهيّة، ونصرتها، وحمايتها. أمّا إذا كفرت الأمّة بهذه النعمة، فأعرضت عنها، وخرجت عن طاعتها، وتولّت عن نصرتها، وتركت القائد الإلهيّ وحيداً في ساحة المواجهة مع الطاغوت، فإنّ ذلك سوف يسبّب انحسار النعمة، وانكماشها، ثمّ حرمان الأمّة عنها، وهي في أشدّ الحاجة إليها.

وانحسار النعمة الإلهيّة التامّة - أي: القيادة الإلهيّة - بسبب كفرانها، له درجات؛ من أهمّها: «سنّة الغيبة» (غيبة القائد الإلهيّ)،

---

(١) سورة إبراهيم: ٢٨- ٢٩.

(٢) سورة إبراهيم: ٧.

وأخطرها: «سنّة الإبادة والاستئصال»، الّتي أشارت إليها آيات متعدّدة من القرآن الكريم؛ منها: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[١].

وقد فسّر «الاستفزاز» في الآية بـ «القتل»[٢]، فيكون المعنى حينئذٍ أنّ مشركي قريش همّوا بقتل الرسول ﷺ، ولو فعلوا ذلك لنزل عليهم العذاب، ولاستُؤصلوا عن آخرهم؛ وذلك لأنّ الّذي نفهمه من سنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الّتي بيّنها في كتابه، أنّ سنّة الله في خلقه تأبى على المجتمع الإنسانيّ - باعتباره جزءً من المجموعة الكونيّة - خرق النظام الإلهيّ العادل، الّذي قامت به السماوات والأرض، ولا يتّسع نظام الخلق الإلهيّ لمجتمع الإنسان؛ إلا في صورتين:

الأولى: أن يقيم نظام العدل الإلهيّ؛ أي: أن يعمل بها أمر الله، ويطيع القيادة الإلهيّة، وحينئذٍ يتناغم مع نظام الخلق الّذي يحكم الكون بأسره، وتخدمه كلّ عناصر الوجود، وتفوّض له السلطة على الكون، ليقوم بدور الخلافة الإلهيّة.

---

(١) سورة الإسراء: ٧٦-٧٧.

(٢) تفسير **مجمع البيان**، الطبرسيّ، ج ٦، ص٦٦٧.

الثانية: أن يكون تمهيداً لقيام المجتمع العادل، وذلك عندما يخرق نظام العدل الإلهيّ، ويخرج عن طاعة القيادة الإلهيّة؛ ولكنّه - رغم ذلك - لم يفقد قابليّة التمهيد لقيام المجتمع العادل، وهنا تأتي «سنّة الإمهال»؛ لكن بشرط إمكانيّة التمهيد للمجتمع الصالح؛ بأن لا يفقد المجتمع البشريّ أهليّته للتغيير والإصلاح، وأن تظلّ الفرصة فيه باقية لكي يرجع إلى الصواب؛ ولو في أجياله اللاحقة. أمّا إذا فقد المجتمع هذه الأهليّة، فسوف يفقد المبرّر الّذي يؤهّله لكي يتنعّم في هذا الكون بنعمة الوجود وغيرها من نعم الله الّتي لا يمكن أن تتجاوز حدود الحكمة والعدل، الّتي تأبى الظلم والفساد في الأرض.

وهذه هي السنّة الّتي نفّذتها الإرادة الإلهيّة بشأن قوم نوح على نبيّنا وآله وعليه السّلام حين رفضوا نظام العدل، وخرجوا عن طاعة الرسول، وتجذّرت فيهم حالة الطغيان، حتّى فقدوا صلاحيّة التمهيد لقيام المجتمع العادل، وانعدمت فيهم كلّ القابليّات الّتي تؤهّلهم - حتّى على المدى البعيد - للرجوع إلى نظام العدل، والعودة إلى حظيرة الطاعة والنصرة للقيادة الإلهيّة. وهذا ما نجده بوضوح في ما صرّح به القرآن الكريم من تاريخ قوم نوح؛ إذ قال سبحانه وتعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ٧ ثُمَّ

إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ إلى أن يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1].

وحاشا نوحاً - وهو العبد الصالح الرؤوف بعباد الله - أن يكون دعاؤه هذا للتشفّي من الكافرين، بل إنّما جاء دعاؤه هذا انسجاماً مع السنّة الإلهيّة بإبادة المجتمع المتمرّد عن طاعة الله، ذلك المجتمع الّذي يفقد كلّ مؤهّلات الاستمرار في الوجود ضمن النظام الكونيّ العامّ، القائم على أساس الحقّ والعدل، بسبب انعدام العدل فيه، وفقدانه صلاحيّة التمهيد لقيام المجتمع الصالح على وجه الأرض. وهذه السنّة هي نفسها الّتي أشارت إليها الآية الّتي أسلفناها من سورة الإسراء:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[2].

إذ إنّ قتل الرسول الخاتم - وهو القائد الفريد الّذي رشّحته الإرادة الإلهيّة لتأسيس مجتمع الخلافة الإلهيّة الدائمة - كان يعني

---

(١) سورة نوح: ٥- ٢٧.

(٢) سورة الإسراء: ٧٦-٧٧.

انعدام الفرصة الأخيرة في المجتمع البشريّ لإقامة النظام العادل.

هذا، إذا فقدت المجموعة البشريّة الطاغية أهليّة التمهيد لقيام المجتمع الصالح، أمّا إذا احتفظت بهذه الأهليّة؛ لكنّها لم تخضع بالفعل لطاعة القائد الإلهيّ، وتخلّت عن نصرته، وحمايته، والاهتداء بهديه، والاقتداء به، فسوف تجري عليها سنّة أخرى؛ هي «سنّة انحسار نعمة القيادة الإلهيّة»؛ وذلك بأن يُغيّب القائد عن الأمّة الّتي كفرت بنعمته، وأعرضت عن قيادته. وهذا التغييب:

قد يكون مكانيّاً: بأن ينقل القائد الإلهيّ إلى مكان آخر، ريثما تتهيّأ الأمّة للتفاعل مع قيادته، وتحملّها لمسؤوليّتها تجاه القيادة الإلهيّة، المتمثّلة في النصرة والطاعة.

وقد يكون زمانيّاً: بأن يختفي القائد عن أعين الناس لفترة قصيرة، أو طويلة من الزمن، منتظراً تهيّؤ الظروف الزمنيّة، واستعدادها لظهوره، والقيام بمهمّته الكبرى؛ وهي إقامة المجتمع الصالح على وجه الأرض.

ونجد في القرآن الكريم نماذج من تنفيذ سنّة انحسار النعمة الإلهيّة، وتغييب القائد الإلهيّ في كبار القيادات الإلهيّة - على مرّ التاريخ - . فمن ذلك: تنفيذ سنّة الانحسار بشأن إبراهيم عليه السلام، القائد الإلهيّ المؤسّس؛ إذ يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن

كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى أن قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

و قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيضاً – في عرض آخر للقصة نفسها – :

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ٨٣ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ٨٥ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ٩٧ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[2].

هذه الآية تحكي قصّة هجرة إبراهيم من وطنه الّذي نشأ فيه، وبدأ فيه دعوته الأولى، إثر المحاولة الّتي قام بها قومه من التآمر على قتله، وإحراقه، وإقدامهم على ذلك؛ لكن شاءت العناية الإلهيّة أن تحبط خطّتهم، وتُفشل مؤامرتهم، وأن تحرس يد القدرة الإلهيّة القيادة الصالحة، وأن تحافظ على نعمة الله الكبرى.

لكنّ الموقف الّذي اتّخذه قوم إبراهيم من القيادة الإلهيّة المتمثّلة في إبراهيم عليه السلام كان كفراً صريحاً بالنعمة الإلهيّة، وإهداراً لحرمتها،

---

(١) سورة العنكبوت: ١٦– ٢٦.

(٢) سورة الصافات: ٨٣– ٩٩.

فكان أن جرت في حقّهم سنّة انحسار النعمة الإلهيّة، فجاء الأمر الإلهيّ بضرورة مغادرة إبراهيم لأرضه وقومه إلى حيث يشاء الله. وبذلك نفذّت سنّة الغيبة في القيادة الإلهيّة في لون من ألوانها؛ وهي: «الهجرة»، أو «الغيبة المكانيّة».

ومن نماذج تنفيذ سنّة الغيبة في القائد الإلهيّ ما يحكيه القرآن الكريم بشأن موسى عليه السلام حين عصاه قومه، واصرّوا على مخالفته وعصيانه. قال سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ ٢٠ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ٢١ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّيْ لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِيْ وَأَخِيْ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[١].

و قد ذكر الطبرسيّ في **مجمع البيان** عن بعض المفسّرين قوله:

---

(١) سورة المائدة: ٢٠- ٢٦.

إنّهما [أي: موسى وهارون عليهما السلام] لم يكونا في التيه؛ لأنّ التيه عذاب، وعذّبوا [أي: بنو إسرائيل] عن كلّ يوم عبدوا فيه العجل سنة، والأنبياء لا يعذّبون[1].

فقد حصلت الفرقة بين بني إسرائيل، وقيادتهم الإلهيّة المتمثّلة في موسى وهارون، بعد إصرارهم على معصية القائد، والخروج عن طاعته، ولم يكن دعاء موسى عليه السلام وسؤاله أن يفرّق الله بينهما وبين قومه الفاسقين إلاّ جرياً على سنّة الله سبحانه وتعالى، ولم يكن ذلك منه ضجراً منهم، أو عن ضيق ذرع بهم، فقد ارتكبوا أعظم من ذلك عندما عبدوا العجل، فلم يضق بهم موسى عليه السلام ذرعاً، ولا سأل ربّه عند ذاك أن يفرّق بينهم وبينه؛ لأنّه لم يكن بينهم آنذاك، وقد طلبوا من هارون - حينما نهاهم عن عبادة العجل - الانتظار ريثما يأتي موسى عليه السلام، وقد حكى الله ذلك بقوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ٩٠ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾[2].

وقد وافقهم هارون على هذا الطلب، ولهذا اعترض عليه موسى

---

(١) **مجمع البيان**، ج ٣، ص ٢٨١، ط. دار المعرفة، بيروت.

(٢) سورة طه: ٩٠- ٩١.

بعد رجوعه، كما حكى الله ذلك؛ إذ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيْ ٩٣ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِيْ وَلا بِرَأْسِي إِنِّيْ خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيْ إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِيْ﴾[1].

وقد تلقّى موسى المعذرة الّتي تقدّم بها هارون بالقبول، وانتهى الأمر إلى أن تاب بنو إسرائيل، فتاب الله عليهم؛ لكنّ موقف بني إسرائيل عن قضيّة الدخول في الأرض المقدّسة كانت تختلف عن موقفهم من عبادة العجل اختلافاً أساسيّاً، وذلك بإصرارهم على مخالفة أمر **القيادة الإلهيّة** بالدخول في الأرض المقدّسة، ومصارحتها بالعصيان، ورفضهم الرجوع إلى طاعته بالرغم من تأكيده، ودعوته المكرّرة لهم بالانقياد لأمره، وبالرغم من تشجيع الرجلين اللّذين أنعم الله عليهما لهم - وهما: موسى وأخوه - ، ودعوتهما لنبي إسرائيل إلى طاعة القيادة الإلهيّة؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ ٢٠ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ٢١ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ

---

(١) سورة طه: ٩٢-٩٤.

فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٣ قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

إنّ الإصرار على معصية القائد الإلهيّ يفقد القائد الإلهيّ دوره القياديّ بين الأمّة، ويؤدّي - لا محالة - إلى انفصام العروة الّتي تجمع بينها وبين قاعدتها الشعبيّة، ويحول دون تمكّن القائد الإلهيّ من ممارسته دوره القياديّ بين قومه ومجتمعه، وهذا هو الّذي يستوجب منطقياً - وعلى أساس من أصول العقل، وقواعد الحكمة - أن تنكمش النعمة، وتنحسر القيادة الإلهيّة، حتّى تتبدّل الظروف الموضوعيّة للأمّة، وتتجدّد الفرصة الّتي تتمكّن فيها القيادة الإلهيّة من أداء دورها الرساليّ المطلوب بين الأمّة.

ومن نماذج تنفيذ سنّة الغيبة في القائد الإلهيّ: ما حدث بشأن عيسى عليه السلام؛ فقد تظاهر عليه قومه، وهمّوا بقتله، فرفعه الله إليه.

---

(١) سورة المائدة: ٢٠-٢٦.

قال سُبحَانَهُ وَتَعَالىٰ:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللَّهِ﴾ إلى قوله سُبحَانَهُ وَتَعَالىٰ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1].

ففي هذه الآيات حكاية أخرى عن سنّة الغيبة في القيادة الإلهيّة؛ إذ أنّ الله غيّب حجّته عن الناس، ورفعه إليه، بعدما امتنع عليه أن يمارس مهمّته القياديّة بين قومه الّذين أُرسل إليهم، بعد أن همّوا بقتله. وقد استمرت سنّة الغيبة في القيادة الإلهيّة بعد عيسى عليه السلام حتّى مبعث نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله، كما يحكي الله سُبحَانَهُ وَتَعَالىٰ ذلك بقوله:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وقد وردت روايات مستفيضة تؤكّد على أنّ زمن الفترة بين

---

(١) سورة النساء: ١٥٥-١٥٩.

(٢) سورة المائدة: ١٩.

عيسى ونبينّا لم يكن خالياً من الحجج والأنبياء، بل تواصلت مسيرة القيادة الإلهيّة باستمرار، وكان هناك أنبياء وأوصياء متعدّدون خلال هذه الفترة؛ لكنّهم كانوا مستورين غير ظاهرين.

قال الشيخ الصدوق في كتاب **إكمال الدين وإتمام النعمة** - بعد ذكره لأحاديث عن النبيّ والأئمّة المعصومين عليهم السلام، تدلّ على تواصل خط القيادة الإلهيّة في زمن الفترة - قال رحمه الله:

وإنّما معنى الفترة أنّه لم يكن بينهما رسول، ولا نبيّ، ولا وصيّ ظاهر مشهور كمن كان قبله، وعلى ذلك دلّ الكتاب المنزل أنّ الله عزّ وجلّ بعث محمّداً صلى الله عليه وآله على حين فترة من الرسل؛ لا من الأنبياء والأوصياء؛ ولكن قد كان بينه وبين عيسى عليه السلام أنبياء وأئمّة مستورون خائفون؛ منهم: خالد بن سنان العبسيّ، نبيّ لا يدفعه دافع، ولا ينكره منكر؛ لتواطئ الأخبار بذلك عن الخاصّ والعامّ، وشهرته عندهم ..، وكان بين مبعثه ومبعث نبينا صلى الله عليه وآله خمسون سنة[1].

(١) كمال الدين وإتمام النعمة، الباب ٥٨، باب في نوادر الكتاب، ص ٦٥٩.

٢. سنّة المرحليّة في غيبة القيادة الإلهيّة

غيبة القائد الإلهيّ لها مراحل تتنوّع بحسب الظروف الّتي تحيط بالقيادة الإلهيّة، واختلاف الفرص المتاحة لعملها، وهي - بحسب ما نجده في القرآن الكريم وسنّة المعصومين - كالتالي:

١،٢. المرحلة الأولى: غيبة التجميد

وذلك بأن يجمّد القائد الإلهيّ نشاطه القياديّ، ويعتزل ساحة العمل القياديّ المعلن الصريح، ويلجأ إلى العزلة الظاهريّة، وتنحسر نشاطاته القياديّة ضمن دوائر محدودة خاصّة، وذلك عندما تستسلم الأمّة لقوى سياسيّة معادية لخطّ القيادة الإلهيّة، وتُعرض بذلك عن طاعة القائد الإلهيّ، وتُؤثر معصيته ومشاقّته، وتصرّ على مخالفته؛ ولكن لم تنعدم كلّ فرص العمل للقيادة الإلهيّة بصورة كاملة، بل تبقى للقيادة الإلهيّة بعض الفرص المحدودة الّتي يتمكّن من استثمارها لتربية الكوادر المؤمنة، وتأهيلها للقيام بواجبها الرساليّ في الظرف المناسب. وهذه السنّة هي الّتي جرت بشأن موسى بعد أن تاه

قومه في الأرض، وهي المرحلة الأولى من مراحل سنّة الغيبة في القيادة الإلهيّة.

٢،٢. المرحلة الثانية: غيبة الهجرة

وذلك بأن يترك القائد الإلهيّ البيئة الاجتماعيّة الّتي بدأ فيها نشاطه القياديّ، وينتقل إلى بيئة أخرى، ومكان آخر، عندما تنعدم في البيئة الأولى فرص العمل والتحرّك للقائد الإلهيّ بصورة كاملة، وتزمع القوى المعادية للقيادة الإلهيّة والمسيطرة على مقاليد السلطة والقوة على قتل القائد الإلهيّ، واستئصال القيادة الإلهيّة، أو فرض الحصار الكامل عليها، بما يفصلها تماماً عن قاعدتها الشعبيّة، ويحول بينها وبين القيادة الإلهيّة بشكل كامل. وهذا ما جرى لرسول الله ﷺ كما تحكي الآية الكريمة:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[١].

وهذه السنّة نفسها جرت قبل ذلك في إبراهيم - كما أشرنا إليها سلفاً - وكما جرى ذلك لموسى عليه السلام في أوّل أمره؛ إذ يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ٢٠ فَخَرَجَ

---

(١) سورة الأنفال: ٣٠.

مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١].

٣،٢. المرحلة الثالثة: غيبة الاستتار

وذلك عندما تنعدم فرصة العمل للقيادة الإلهيّة في مرحلة زمنيّة معيّنة بصورة كاملة، بحيث لا يجدي معها تنفيذ سنّة الهجرة؛ لسيطرة القوى المعادية على كلّ المناطق المرشّحة لاحتضان القيادة الإلهيّة، عندئذ يأتي دور غيبة الاستتار، فتسحب السماء نعمتها الكبرى إلى حيث يشاء الله، وتحتفظ بها ريثما تتجدّد في الأمّة فرصة احتضان القيادة الإلهيّة والتفاعل معها، من أجل إقامة المجتمع العادل، وتنفيذ السنّة الإلهيّة بخلافة الصالحين في الأرض.

ويبدو أنّ تنفيذ سنّة استتار القيادة الإلهيّة تلازم تنفيذ سنّة أخرى في الأمّة الّتي تنبعث القيادة فيها، وهي سنّة الاستبدال، وسوف نوضّح في حديثنا عن «ثورة الحسين عليه السلام من منظور السنن التاريخيّة في القرآن الكريم» بعض القواعد الّتي تجري على أساسها سنّة الاستبدال؛ ومن أهمّها: نقض الأمّة المستخلفة لميثاقها مع القيادة الإلهيّة، وفقدانها - عندئذ - صلاحيّة الخلافة الإلهيّة، وزوال استعدادها للقيام بدور النصرة والطاعة للقيادة الإلهيّة.

وعلى هذا الأساس، نُفِّذَت سنّة الاستبدال على بني إسرائيل،

---

(١) سورة القصص: ٢٠-٢١.

وسنّة استتار القيادة الإلهيّة الّتي كانت متمثلة في عيسى عليه السلام في وقت واحد. وهذا ما تحكيه لنا الآيات الكريمة؛ إذ تقول:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ١٥٥ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[١].

فقد كانت بنو إسرائيل الأمّة الّتي استخلفها الله سبحانه وتعالى لإقامة العدل في الأرض بقيادة القائد الإلهيّ موسى عليه السلام، وقد حكت آيات كثيرة من القرآن تفضيلها بهذا الاستخلاف؛ إذ يقول سبحانه وتعالى:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢].

وأيضاً يقول سبحانه وتعالى:

---

(١) سورة النساء: ١٥٥-١٥٩.

(٢) سورة البقرة: ٤٧.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ﴾[١].

ولكنّها بنقضها للميثاق وقتلها الأنبياء بغير حقّ، وبإقدامها على قتل القيادة الإلهيّة المتمثّلة بعيسى عليه السلام - وهي الفرصة الأخيرة الّتي أتاحتها السماء لبني إسرائيل للرجوع إلى رشدها، والوفاء بعهدها مع الله سبحانه وتعالى - فوّتت على نفسها فرصة الاستخلاف الإلهيّ بشكل كامل، وبرهنت عمليّاً على زوال آخرِ ما تبقّى فيها من صلاحيّات القيام بمسؤوليّة الخلافة الإلهيّة على الأرض. وبذلك، استحقّت تنفيذ سنّة الاستبدال بشأنها، وهذا ما كان.

فقد استبدلت يد الحكمة الإلهيّة شريحة أخرى من بني إبراهيم عليه السلام، وهم العرب أبناء إسماعيل عليه السلام؛ لكي يقوموا بمسؤوليّة الخلافة الإلهيّة، وإقامة العدل على وجه الأرض، فقاموا بهذه المهمّة الكبرى - في أوّل الأمر- خير قيام، حتّى أقاموا العدل في الجزيرة العربيّة، وشيئاً من مناطق أخرى، وأضحوا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٢]؛ غير أنّهم- كما يحكي لنا تاريخنا المؤسف - سلكوا آخر الأمر مسلك بني إسرائيل في نقضهم للميثاق مع الله سبحانه وتعالى،

---

(١) سورة المائدة: ٢٠.

(٢) سورة آل عمران: ١١٠.

والخروج عن طاعة القيادة الإلهيّة إلى أن ارتكبت فيهم أشنع جريمة عرفها التأريخ الإنسانيّ، عندما ذبحت القيادة الإلهيّة المتمثّلة في سبط رسول الله الإمام الحسين عليه السلام، وأُبيد الصالحون من أهل بيته وأصحابه سلام الله عليهم أجمعين.

وعلى إثر ذلك، نفّذت السماء سنّة الاستبدال على هذه الشريحة كسابقتها، واقترنت سنّة الاستبدال هذه بسنّة تجميد القيادة الإلهيّة عملها - أوّلاً - تمهيداً لتنفيذ سنّة الاستتار الكامل، وهذا ما تمّ بعد أن أعدّت القيادة الإلهيّة في عصر تجميدها الأخير- بدءً من الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين حتّى الإمام الحسن العسكريّ عليهم السلام - الأمّةَ لتنفيذ سنّة استتار القيادة الإلهيّة، وذلك عندما فوّتت هذه الأمّة على نفسها - كسابقتها - فرصة الاستخلاف الإلهيّ، فغابت القيادة الإلهيّة غيبة كاملة، ريثما تعود الأمّة إلى رشدها، وتحيا فيها من جديد صلاحيّات الاستخلاف الإلهيّ، وتنفيذ وعد الله القائل:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1].

كما قال سبحانه وتعالى أيضاً:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي

(١) سورة الأنبياء: ١٠٥.

الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[1].

(١) سورة النور: ٥٥.

٣. صلح الإمام الحسن عليه السلام على ضوء سنن القيادة الإلهيّة

لقد وضّحنا - فيما سبق - بعض سنن القيادة الإلهيّة في القرآن الكريم، وأشرنا إلى سنّة انحسار القيادة الإلهيّة، وغيبتها، بمراحلها الثلاث؛ من «التجميد»، و«الهجرة»، و«الاستتار». كلّ ذلك وفقاً لظروف استجابة الأمّة، ومدى صلاحيّتها للقيام بدور الخلافة الإلهيّة على وجه الأرض.

وكما نفّذت سنن القيادة الإلهيّة في الأنبياء السابقين، وأوصيائهم، نفّذت بشأن الرسول القائد، وأوصيائه المعصومين من بعده صلوات الله عليهم أجمعين. وقد أشرنا إلى تنفيذ سنّة الهجرة في عصر القيادة النبويّة، بعدما همّت قريش بقتله صلى الله عليه وآله.

وقد استمرّ تنفيذ السنن الإلهيّة المتمثّلة في أوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله، ابتداءً من أمير المؤمنين، حتّى خاتمهم الحجّة المنتظر صلوات الله عليهم أجمعين، وجاء صلح الإمام الحسن عليه السلام وفقاً لهذه السنن، وبوجه خاصّ تنفيذاً لسنّة التجميد في القيادة الإلهيّة، في مقطع مهمّ من مقاطع تاريخ هذه الأمّة.

لقد نفّذت سنّة التجميد في القيادة الإلهيّة بعد وفاة الرسول الأعظم ﷺ، عندما عُصي الرسول، وهُجرت وصيّته، ولم يثبت على ميثاق الطاعة والنصرة للقيادة الإلهيّة المستخلفة بعد رسول الله ﷺ؛ إلا الأقلّون من صحابة الرسول الأوفياء، فنفّذت سنّة التجميد، واعتزلت القيادة الإلهيّة ساحة التصدّي السياسيّ، وانحسر نشاطها ضمن دائرة الممكن من النشاط التربويّ، والتعليميّ، والتوجيه الثقافيّ، وأحياناً - وبحدود ما كان يتيسّر لها - تسديد السلطة السياسيّة بما يعينها على أمرها ضمن دائرة المصالح الإسلاميّة العامّة.

هذا هو الدور الأوّل من تنفيذ سنّة التجميد في القيادة الإلهيّة بعد رسول الله ﷺ، وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى ذلك بقوله:

«فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ وَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى وَشَرِبْتُ عَلَى الشَّجَا وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ الْكَظَمِ وَعَلَى أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ»[١].

وقال عليه السلام:

«أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحاً وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا

---

(١) نهج البلاغة، شرح محمّد عبده، الخطبة ٢٦، ص٨٩، ط. الأعلميّ، بيروت.

الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذًى وَفِي الْحَلْقِ شَجًا أَرَى تُرَاثِي نَهْباً..»[١].

وحينما رجعت الأمّة إلى طاعة الرسول بعد مقتل عثمان، واجتمعت حول عليّ عليه السلام تعلن له الولاء والطاعة، جاء دور سنّة الحضور والتصدّي للقيادة، فعاد القائد الإلهيّ ليمارس مهمّته القياديّة بعد إعلان الأمّة طاعتها له، واستعدادها لنصرته، بالرغم ممّا أصابها من التشويه الثقافيّ والتربويّ، والابتعاد عن سنّة العدل الّتي أقامها الرسول صلى الله عليه وآله، ممّا جعلها تضعف عن القيام بواجب النصرة والطاعة، وتتخلّف مرّة أخرى عن القيادة الإلهيّة بعد زمن يسير.

وقد أشار صلوات الله عليه إلى حضور الأمّة في ساحة النصرة بعد غيبتها، وما نتج من ذلك من ضرورة استجابة القيادة الإلهيّة لهذا الحضور الجماهيريّ بقوله:

«أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَن لا يُقَارُّوا

---

(١) المصدر نفسه، الخطبة ٣، ص ٥١. وقد روى هذه الخطبة كثير من أعلام الحديث والتأريخ؛ مثل: ابن عبد ربّه في العقد الفريد، والسبط ابن الجوزيّ في تذكرة الخواصّ، وغيرهما. راجع للاطلاع على مصادر هذا النصّ والذي قبله (من غير نهج البلاغة) من كتب الحديث والتاريخ: كتاب **مصادر نهج البلاغة وأسانيده**، للسيّد عبد الزهراء الخطيب.

عَلى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا»[1].

ولكنّ هذا الحضور الجماهيريّ لم يدم طويلاً، فقد أنتجت البذور المسمومة الّتي زرعت بين الأمّة ثمارها المُرّة، وبدأت القوى المعادية لرسول الله ﷺ، ولخطّ القيادة الإلهيّة، تتآمر عليها، وحالفها الحظّ في تآمرها هذا، حتّى نالت كثيراً من التوفيق.

وقد وصف أمير المؤمنين واقع المجتمع الإسلاميّ بعد ابتعاده عن سنّة رسول الله ﷺ، وتمكّن القوى المعادية للإسلام ولرسوله على احتلال كثير من مواقع النفوذ والتأثير فيه، قائلاً:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ وَزَمَنٍ كَنُودٍ يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً لا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا وَلا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا وَلا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحِلَّ بِنَا فَالنَّاسُ عَلى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ مِنْهُمْ مَنْ لا يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ وَكَلالَةُ حَدِّهِ[2] وَنَضِيضُ وَفْرِهِ[3] وَمِنْهُمْ الْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ وَأَوْبَقَ

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٣، ص ٥٦، طبعة الأعلميّ، بيروت.

(٢) «**كلالة حدّه**»: أي: ضعف سلاحه عن القطع في أعدائه.

(٣) «**نضيض وفره**»: أي: قلّة ماله.

دِينَهُ لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ[١] وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللهِ عِوَضاً وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ وَلا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا..» إلى أن قال صلوات الله عليه: «وَمِنْهُمْ مَنْ أَقْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُؤُولَةُ نَفْسِهِ وَانْقِطَاعُ سَبَبِهِ فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلا مَغْدًى»[٢].

هذه هي الطبيعة العامّة للمجتمع الّذي عاصر خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، ثمّ قال صلوات الله عليه - وهو يصف الأقليّة المؤمنة الثابتة على الإيمان -:

«وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ وَدَاعٍ مُخْلِصٍ وَثَكْلانَ مُوجَعٍ»[٣].

وقال صلوات الله عليه - في خطبة له أخرى يصف الناس في عهده -:

«أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ كَلامُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلابَ وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الْأَعْدَاءَ تَقُولُونَ فِي

---

(١) «فرع المنبر»: أي: علاه.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٣٢، ص ٩٩-١٠١، طبعة الأعلميّ، بيروت.

(٣) المصدر نفسه.

الْمَجَالِسِ كَيْتَ وَكَيْتَ فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ حِيدِي حَيَادِ مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ وَلا اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ..» إلى أن قال صلوات الله عليه: «أَصْبَحْتُ - وَاللَّهِ - لا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ وَلا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ وَلا أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ مَا بَالُكُمْ مَا دَوَاؤُكُمْ مَا طِبُّكُمْ»[١].

ويمكن معرفة أوضاع المجتمع - أيضاً - من إحدى خطب أميرالمؤمنين عليه السلام البليغة؛ وهو يقول:

«فَيَا عَجَباً عَجَباً وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ اجْتِمَاعُ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقُكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلا تُغِيرُونَ وَتُغْزَوْنَ وَلا تَغْزُونَ وَيُعْصَى اللَّهُ وَتَرْضَوْنَ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هَذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هَذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ كُلُّ هَذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ - وَاللَّهِ - مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلا رِجَالَ حُلُومُ الأَطْفَالِ وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً وَاللَّهِ جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً قَاتَلَكُمُ اللَّهُ لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي

---

(١) المصدر نفسه، الخطبة رقم ٢٩، ص ٩٥-٩٧.

غَيْظاً وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلانِ حَتَّى قالَتْ قُرَيْشٌ إِنَّ ابْنَ أَبِيطَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلكِنْ لا عِلْمَ لهُ بِالْحَرْبِ لِلَّهِ أَبُوهُمْ وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ وَهَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ وَلكِنْ لا رَأْيَ لِمَنْ لا يُطَاعُ»[١].

هذا هو الواقع المرّ الّذي كان عليه المجتمع الّذي وليه أميرالمؤمنين عليه السلام ؛ ولكن بالرغم من كلّ عوامل الشرّ والفساد الّتي كانت تخرم جسم ذلك المجتمع، فإنّ القيادة الإلهيّة المتمثّلة بأميرالمؤمنين عليه السلام ظلّت تحافظ على تماسكه النسبيّ، ودفعه - وإن عسر- نحو القيام بمسؤوليّاته الكبرى في الدفاع عن العدل، ومواجهة الطغاة، والمجرمين، الحاقدين على دين الله ورسوله.

غير أنّ استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام كانت الضربة القاضية الّتي تلقّتها المجموعة المؤمنة في المجتمع الإسلاميّ، الثابتة على عهدها مع القيادة الإلهيّة حتّى ذلك الحين. كما رفع في نفس الوقت من معنويّات الجبهة المعادية لها، وأزاح عن طريقها أعظم ما كانت تواجهه من الموانع الّتي تحول دون تحقيق طموحها في النزو على السلطة، والاستيلاء التامّ على مقاليد الحكم والإمارة في المجتمع الإسلاميّ آنذاك.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢٧، ص ٨٩، طبعة الأعلميّ، بيروت.

خلت ساحة الصراع عمّن به كانت ترجح كفّة المؤمنين، الأمير الّذي باشر رسول الله إعداده للقيام بمهمّة القيادة بعده، ونصبه بأمر من الله إماماً على الناس، ذلك الّذي عرفه الناس أعظم شريك ومؤازر لرسول الله ﷺ في بناء الأمّة وإقامة الدين، ذلك الصرح الشامخ الّذي لم يسع لأحد من الناس بعد رسول الله أن يدانيه في سابقة، ولا يضاهيه في مكرمة، ولا يماثله في فضيلة من فضائله الجمّة الّتي عجز عن وصفها المادحون. عند ذلك، وهن ما تبقّى من العزيمة في نفوس الأكثرين ممّن زحفوا إلى نصرة القيادة الإلهيّة بعد مقتل عثمان، مجدّدين لها البيعة، ومعلنين لها الوفاء بالطاعة والنصرة، فعادوا معرضين عن نصرة القيادة الإلهيّة المتمثّلة - آنذاك - في سبط رسول الله الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ، خارجين عن طاعتها، مؤثرين معصيتها ومخالفتها. وقد جاء في رواية أبي مخنف - في وصف حال الناس الّذين كانوا مع الإمام الحسن بعد استشهاد أبيه صلوات الله عليه - :

وسار معاوية نحو العراق ليغلب عليه، فلمّا بلغ جسر منبج، تحـرّك الحسن عليه السلام ، وبعث حُجر بن عَديّ، يأمر العمالَ بالمسير، واستنفر الناس للجهاد، فتثاقلوا عنه، ثمّ خفّوا، ومعه أخلاط الناس؛ بعضهم شيعة له ولأبيه، وبعضهم محكّمة، يؤثرون قتال معاوية بكلّ حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم شكّاك، وبعضهم أصحاب عصبيّة، اتّبعوا رؤساء قبائلهم، لا يرجعون إلى دين، فسار حتّى أتى حمام عمر، ثمّ أخذ إلى دير

كعب، فنزل ساباط، دون القنطرة، وبات هناك. فلمّا أصبح، أراد أن يمتحن أصحابه، وليستبرئ أحوالهم في الطاعة له، ليتميّز بذلك أولياؤه من أعدائه، ويكون على بصيرة من لقاء معاوية وأهل الشام، فأمر بهم أن ينادى بالصلاة جامعة، فاجتمعوا، فصعد المنبر، فخطبهم، فقال:

«الحَمْدُ للهِ بِكُلِّ مَا حَمِدَه حَامِدٌ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاّ اللهُ كلّما شهدَ له شاهدٌ، وأشهدُ أنّ محمّداً عبدُه ورسولُه، أرسله بالحقّ وائتمنه على الوحي ﷺ. أمّا بعدُ: فوَاللهِ إنّي لأرجو أن أكونَ قد أصبحتُ - بحمدِ اللهِ ومنّهِ - وأنا أنصحُ خلقِ اللهِ لخلقهِ، وما أصبحتُ محتملاً على مسلم ضغِيْنةً ولا مُريداً له بسوءٍ ولا غائلةٍ، ألا وإنّ ما تكرهُونَ في الجماعةِ خيرٌ لكم ممّا تحبُّونَ في الفُرقةِ، ألا وَإنّي ناظرٌ لكم خيراً من نظرِكم لأنفسِكم فلا تُخالِفوا أمري، ولا ترُدُّوا عليَّ رأيي، غفرَ اللهُ لي ولكم وأرشَدَنِي وإيّاكم لما فيه المحبّةُ والرِّضا».

قالَ: فنظرَ النّاسُ بعضُهم إلى بعض، وقالوا: ما تَرَوْنَه يرُيدُ بما قالَ؟ قالوا: نَظُنُّه - والله - يرُيدُ أن يُصالحَ معاويةَ، ويُسَلِّمَ الأمر إليه! فقالوا: كفرَ- والله - الرّجلُ، ثمّ شدُّوا على فُسْطَاطِه فانتهبوه، حتّى أخذوا مُصلاّه من تحتِهِ، ثمّ شدَّ عليه عبدُ الرحمن بن عبدِالله بنِ جِعَالٍ الأزْديّ، فنزعَ مِطْرَفَه عن عَاتِقِهِ، فبقيَ جالساً متقلِّداً السّيفَ بغير رداءٍ. ثمّ دَعَا بفرسِه فرَكِبَه، وأحْدَقَ به طَوَائفُ مِن

خاصّتِه وشيعتِه ومنعوا مِنه مَنْ أرادَه، فقالَ:

«ادعُوا إِلَيَّ رَبيْعةَ و هَمْدانَ».

فدُعُوا له، فأطافوا به، ودفعوا النّاسَ عنه. وسارَ وَمعَه شوبٌ منَ النّاسِ، فلمّا مرَّ في مُظلمِ ساباط بَدَرَ إليه رجلٌ من بني أسد يُقالُ له الجَرّاحُ بنُ سِنان، فأخذَ بلجامِ بغلتهِ، وبيدِه مِغْوَلٌ، وقالَ: اللهُ أكبرُ، أشركتَ - يا حسنُ - كما أشركَ أبوكَ من قبلُ! ثمّ طعنَه في فخذِه فشقَّه حتّى بلغَ العظمَ.

إلى أن يقول:

واشتغلَ [الحسن عليه السلام] بنفسِه يعُالِجُ جُرْحَه. وكتبَ جماعةٌ من رؤساءِ القبائلِ إلى معاويةَ بالطّاعةِ له في السِّرِّ، واستحثّوه على السّيرِ نحوَهم، وضَمِنُوا له تسليمَ الحسنِ عليه السلام إليه عندَ دُنُوِّهم من عسكرِه، أو الفتكَ به[1].

يحكي لنا هذا النصّ صورة واضحة عن حالة التمرّد الّتي عمّت معسكر الإمام، حتّى وجد إمام المسلمين نفسه غريباً بين أهله، قليل النّاصر، غير مطاع، وهي الحالة الّتي ظهرت بوادرها منذ خلافة أبيه.

في حالة كهذه، لا متّسع لمواصلة القيادة الإلهيّة دورها القياديّ، فتجري - لا محالة - سنّة التجميد الّتي سبق الحديث عنها، ويتحتّم

---

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد، ص ١٨٩-١٩٠، ونفس الخبر تجده في: تاريخ الطبريّ.

عندئذ على القيادة الإلهيّة، اعتزال ساحة التصدّي، ريثما تتجدّد في الأمّة الظروف الّتي يتمكن فيها القائد الإلهيّ من تعبئة الجماهير، والقيام بدوره القياديّ في مواجهة الطواغيت، وعوامل الشرّ والفساد، وإقامة العدل على وجه الأرض. تقول الرواية:

فازدادت بصيرة الحسن عليه السلام بخذلان القوم له، وفساد نيّة المحكّمة فيه، بما أظهروه له من السبّ والتكفير له، واستحلال دمه، ونهب أمواله، ولم يبقَ معه من يأمن من غوائله؛ إلّا خاصّته من شيعة أبيه وشيعته، وهم جماعة لا تقوم لأجناد الشام، فكتب إليه معاوية في الهدنة والصلح، وأنفذ إليه بكتب أصحابه الّذين ضمنوا له فيها الفتك به، وتسليمه إليه، فاشترط له على نفسه في إجابته إلى صلحه شروطاً كثيرة، وعقد له عقوداً، كان في الوفاء بها مصالح شاملة، فلم يثق به الحسن عليه السلام، وعلم باحتياله بذلك، واغتياله، غير أنّه لم يجد بدّاً من إجابته إلى ما التمس من ترك الحرب، وإنفاذ الهدنة؛ لما كان عليه أصحابه - ممّا وصفناه - من ضعف البصائر في حقّه، والفساد عليه، والخلف منهم، وما انطوى عليه كثير منهم في استحلال دمه، وتسليمه إلى خصمه[1].

وهكذا جرت - مرّة أخرى - سنّة التجميد في القيادة الإلهيّة المتمثّلة في سبط النبيّ الأكبر؛ الإمام الحسن عليه السلام، وكانت ثورة الحسين

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩١.

عليه السلام بعد موت معاوية تنفيذاً لسنّة الحضور - من جديد - بعد ما اعلنت الجماهير ولاءها له، واستعدادها لطاعته ونصرته، وأقدمت على بيعة سفيره الّذي أنفذه إليهم؛ وهو مسلم بن عقيل رضوان الله عليه.

ثورة الإمام الحسين عليه السلام
من منظور السُّنن التاريخيّة في القرآن الكريم

* من سنن التاريخ في القرآن الكريم.
- سنّة الاستخلاف.
- ميثاق النصرة.
- سنّة الاستبدال.
- مواصفات أُمّة الاستبدال.
* السلطة والحكم.
* مفهوما السلطة والحكم.
* خلافة الأمّة.
* الخلافة والشهادة.
* مفهوما العزّ والذلّ؛ شواهد قرآنيّة.
* ثورة الإمام الحسين عليه السلام من منظور سنن القرآن الكريم
* الأمّة المستخلفة.
* الحسين عليه السلام الإمامة المستخلفة.
* وفاء الإمامة بالعهد.



تحتلّ السنن التاريخيّة موقعاً متميّزاً، ومساحة واسعة في القرآن الكريم، واختصّت القوانين الاجتماعيّة الّتي تحكم تطوّر المجتمع البشريّ بحصّة كبيرة من آيات الذكر الحكيم.

ونوّد أن نتجنّب التعبير عن هذه الحقائق القرآنيّة بالنظريّة؛ فمصطلح النظريّة يفهم منه أحياناً الحالة الفكريّة والاجتماعيّة الّتي تعبّر عن رأي إنسانيّ يصيب ويخطىء؛ وليس الأمر في حقائق القرآن العظيم من هذا القبيل؛ إلاّ أنّ للقرآن الكريم نظرته الشموليّة للنظام الاجتماعيّ. فهناك تفسيرٌ قرآنيّ للمجتمع، ولتطوّر التاريخ والأحداث الاجتماعيّة، وبنسقٍ وتكامل فريدين حقّاً؛ إذ يمكن تفسير كلّ حدث تاريخيّ على ضوء الموازين والمعايير الّتي يقدّمها القرآن الكريم.

سنّتان تاريخيّتان

من السنن التاريخيّة الّتي يؤكّد القرآن الكريم عليها - في مواضع عديدة من آياته الشريفة - سنّتان تاريخيّتان؛ هما: «سنّة الاستخلاف»، و«سنّة الاستبدال».

ونريد في هذه العجالة تسليط الضوء على ثورة الإمام الحسين عليه السلام من خلال هاتين السُنّتين - إن شاء الله تعالى - .

سنّة الاستخلاف

ذكرت آيات القرآن الكريم أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل آدم خليفة على الأرض، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وهنا سؤال لابدّ منه؛ وهو أنّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ استحقّ هذه الخلافة، هل استحقّها لكونه بشراً؟ أم لكونه إنساناً صالحاً، عادلاً، مطيعاً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؟! وهذه نقطة جوهريّة بالغة الأهمّيّة في تفسير هذه الآية الكريمة؛ فهل إنّ الخلافة الإلهيّة أُعطيت لآدم لكونه فرداً من البشر؟ أم أنّها أُعطيت له لكونه إنساناً يحمل مواصفات متميّزة، أهمّها الصلاح والطّاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.

من خلال استعراض الآيات القرآنيّة، نفهم أنّ الخلافة أُعطيت لآدم بوصفه إنساناً صالحاً، عاملاً بأمر الله ونهيه؛ يقول عزّ اسمُه:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1].

ومن هنا، نعرف أنّ سنّة الاستخلاف تقتضي أن ينتهي الأمر إلى وراثة الصالحين. وسنّة الاستخلاف تعني أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل لنفسه خلفاء يخلفونه على الأرض، يطبّقون أوامره، ويجتنبون نواهيه، وهذه بالذات هي فلسفة الخلافة، فحينما يُقال «إنّ فلاناً يخلف فلاناً في أهله»، فـ«الخلافة» هنا تعني: تنفيذ مقاصده فيما يخصّ الأهل، ومعنى «أن يخلّف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أحداً في أرضه»: تنفيذ المقاصد الإلهيّة، وتطبيق أوامره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأرض.

وليس معنى الخلافة الإلهيّة على الأرض مجرّد وجود إنسان عاقل، مريد، ومختار؛ يريد ويفعل. وبالتأكيد، ليست هذه الميزة هي الّتي جعلت من الإنسان خليفة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. إنّ الميزة الّتي جعلت من الإنسان خليفة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - زائداً على كونه إنساناً مختاراً؛ يريد فيفعل - أنّه يريد ما يريده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، تلك الميزة الّتي أهّلت آدم، وجعلته خليفة لله على الأرض.

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٥.

ومن هنا، نفهم أنّ الخلافة الإلهيّة تتضمّن إدارة الأرض والمجتمع وفق ما يريده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ . وهذا معناه السلطة، والحكم، والقيادة السياسيّة. فخليفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الأرض، من تُعطى له السلطة؛ لأنّ السلطة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده، وليست لغيره أبداً، فيعطيها لمن ينفّذ إرادته في الأرض. هذه هي الخلافة كما نفهمها من القرآن الكريم.

والخلافة كما- نجد في القرآن الكريم- نوعان: **خلافة فرديّة**، وأخرى **جماعيّة**. وهي تبدأ بالفرد الأصلح، وتنتهي بالمجتمع الصالح، أو المجموعة الصالحة، لتصبح المجموعة الّتي استخلفها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على وجه الأرض. فالقائد المزكّى المنصوب من قبل الله، والّذي يقيم حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُربّي أُمّة، فإذا وُجد المجتمع الّذي تربّى على يد القائد الأصلح، وجد المجتمع الخليفة الّذي يكون خليفة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؛ أي: المجتمع الّذي يطبّق أوامر الله ونواهيه.

يقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

(١) سورة الأنعام: ١٦٥.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سنّة الاستبدال

وإلى جانب سنّة الاستخلاف في القرآن الكريم، تعرض الآيات القرآنيّة الكريمة مفهوماً قرآنيّاً آخر؛ وهو مفهوم «سنّة الاستبدال».

إنّ لله جَلَّ وَعَلَا مع عباده مواثيق عديدة؛ منها: «ميثاق النصرة»، وهو ميثاق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع المؤمنين، وهم من يمكن التعبيرعنهم بـ «الأمّة الخليفة». فلقد أخذ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الأُمّة الخليفة الميثاق والعهد على النصرة. يقول عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾[1].

﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[2].

---

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) سورة الأحزاب:٢٣.

وميثاق النصرة هو ميثاق الله مع المؤمنين، أن يبذلوا أموالهم وأنفسهم لنصرة دين الله. إنّه ميثاق وعهد بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبين من يؤمن، أن يبذل المؤمن في سبيل الله كلّ ما يملك، بإزاء أن يمكّنه الله في الدنيا، وأن يعطيه جنّته، ورضاه في الآخرة، أن ينصر المؤمن دين الله بماله، ونفسه، وبكلّ ما أُوتي، وأن ينصره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعطيه جنّته ورضاه. هذا هو ميثاق نصرة «الجماعة المؤمنة»، أو «الأمّة الخليفة»، الأمّة الّتي أُوكل إليها تطبيق حكم الله على الأرض، فلو وفت الأمّة الخليفة بميثاقها مع الله، فنصرت دين الله، وفى الله لها بوعده. يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيْ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[1].

ومكّنها الله في الأرض. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾[2].

ويجعل الله الجماعة المؤمنة قادةً، وملوكاً، وأعزّةً بعزّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو الّذي جرى مع الأمم السابقة كبني إسرائيل حسبما يقصّ لنا القرآن الكريم من تاريخهم، وأحوالهم؛ فقد نصرهم الله إذ نصروه،

---

(١) سورة البقرة: ٤٠.

(٢) سورة النور: ٥٥.

وأهلك عدوّهم، وجعلهم ملوكاً، وآتاهم ﴿مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ﴾[1].

ثم يُبيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قرآنه الكريم كيف أنّ الأمّة الخليفة إذا نقضت ميثاق النصرة، وخانت بعهدها مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ينفّذ بحقّها قانون آخر؛ وهو سنّة الاستبدال. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾[3].

وسنّة الاستبدال إنّما تجري حينما تنقض الأمّة الخليفة ميثاق النصرة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد حكى لنا القرآن الكريم مصير الأمّة الّتي نقضت عهدها مع الله؛ كيف استبدل الله عنها بقوم آخرين، وكيف أنّه سلبها عزّها، وسلطانها، وكيف تحوّلت إلى أمّة ذليلة مستكينة. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - حكاية لأحوال بني إسرائيل بعد نقضهم للميثاق -:

---

(١) سورة المائدة: ٢٠.

(٢) سورة محمّد: ٣٨.

(٣) سورة المائدة: ٥٤.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾[١].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[٢].

ثم إنّ الأمّة المصابة بسنّة الاستبدال، لها مواصفات يحكيها القرآن الكريم؛ منها:

* **قسوة القلب**: ﴿جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾[٣].
* **تحريف الحقّائق الإلهيّة**: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[٤].
* **الذّلّ**: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾[٥].
* **تكذيب الأنبياء والسفراء الإلهيّين**: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ﴾[٦].
* **قتل الأنبياء والصالحين**: ﴿وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[٧]، ﴿وَيَقْتُلُونَ

---

(١) سورة المائدة: ١٣.

(٢) سورة البقرة: ٦١.

(٣) سورة المائدة: ١٣.

(٤) سورة المائدة: ١٣.

(٥) سورة البقرة: ٦١.

(٦) سورة البقرة: ٨٧.

(٧) سورة البقرة: ٨٧.

الأنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[١].

* **أكل المال الحرام:** ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾[٢].

وغير ذلك من مواصفات الأمّة المصابة بقانون الاستبدال.

ويبدو أنّ من أهمّ هذه المواصفات، وأشدّها وضوحاً في أحوال الأمم المصابة بالاستبدال، هي صفتان: صفة قتل الأنبياء والصالحين، وصفة الذّل والمسكنة والهوان.

مفهوما السلطة والحكم

يكشف القرآن الكريم حتميّة التلازم بين مفهومي الاستخلاف والاستبدال، واختصاصهما بالسلطة والحكم. وهنا، لابدّ من التوقّف عند مفهومي السلطة والحكم؛ فماذا تعني «السلطة»؟ وماذا يعني «الحكم»؟ سواءً أكان هذا الحكم إسلامياً، أم ديمقراطياً، أو ديكتاتوريّاً، أو أيّ لون آخر من ألوان الحكم.

حقيقة «الحكم» هي خضوع إرادة الناس لإرادة عُليا، فهناك إرادة عليا تخضع لها إرادة الآخرين، والإرادة العليا هذه هي الّتي

(١) سورة آل عمران: ١١٢.

(٢) سورة النساء: ١٦١.

تحدّد إرادة الآخرين، وتحدّ من حرّيّاتهم، وتوجّه إراداتهم. والإرادة العليا هذه تأمرهم، وتنهاهم، وتلزم عليهم أموراً، وتمنعهم من أمور أخرى، وهذا هو معنى السلطة.

وتأسيساً على التعريف السابق، فصاحب السلطة هو ذلك الّذي يكون له الحقّ في الأمر، والنهي، وتوجيه إرادة الآخرين.

خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بني الإنسان كلّهم سواسيةً في أنّهم بشر، وهم موجودات لهم إرادة واختيار، فكما ليس لأحد أن يأمرنا وينهانا، ليس لنا أن نأمر، أو ننهى أحداً، فبنو الإنسان كلّهم سواء؛ ليس لأحد على آخر أيّة ميزة. إنّما الّذي له مطلق الحقّ في الأمر والنهي هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس غيره؛ إلاّ من كان طريقاً إلى أمر الله ونهيه، وهو من نصبه الله للحكم، ممّن توفّرت فيه شروط الطاعة المطلقة لله، والخضوع لأمر الله ونهيه، وهذا مفهوم عقيديّ جوهريّ يتجلّى في القرآن الكريم بآكد بيان، وأبلغ تعبير. يقول عَزَّ مِنْ قَائِل :

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٨ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ٦٩ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١].

---

(١) سورة القصص: ٦٨-٧٠.

والحكم في القرآن الكريم يعني: السلطة، وحقّ الأمر والنهي، كما هو معناه في اللغة، من دون حاجة إلى التوجيه والتأويل.

ومعنى السلطة هذا نجده في القرآن الكريم، وهو يحكي لنا دعاء إبراهيم عليه السلام؛ اذ قال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالحقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[1].

كما يحكي لنا القرآن الكريم استجابة الحقّ جلّ وعلا لرسوله إبراهيم عليه السلام قائلاً:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[2].

لقد بعث الله الرسل لإقامة حكم الله في الأرض، وليس لتبليغ حكم الله فقط، بل لإقامة الحكم الإلهيّ أيضاً، لتبليغ حكم الله وتنفيذه، وحيث إنّ السلطة المطلقة هي لله سبحانه وتعالى، وليست لغيره، فهو عزّ شأنه الّذي يعيّن في الأرض من يمثّل سلطته، وينفّذها، كما أنّه ليس لأيّ إنسان أن يطيع إنساناً في أمر أو نهي؛ إلاّ اذا كان هذا الأمر والنهي متصلاً بالله سبحانه وتعالى عبر إنسان مأذون منه جلّ وعلا، لتكون الطاعة لله سبحانه وتعالى ، وهذا مفهوم أساسيّ وجوهريّ في القرآن، وهذه هي نظريّة الإسلام في الإمامة.

---

(١) سورة الشعراء: ٨٣.

(٢) سورة البقرة: ١٢٤.

فالسلطة تحتاج إلى إذن من الحقّ عزّ اسمه، فليس لأحد على أحد أيّة سلطة؛ إلاّ اذا كانت هذه السلطة مشتقّة من سلطة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مخوّلة من قبله، وهذا ما يحكيه القرآن نصّاً؛ إذ يقول عزّ مِن قائِل:

﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وهذا هو المعنى اللغويّ الدقيق للمُلك الّذي تفسّره لنا الآية الأخرى:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء﴾[2].

فالمُلك يعني: السلطة، والله هو مالك الملك، وهو الّذي يؤتيه من يشاء، وهو سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينزعه ممّن يشاء.

والخليفة الإلهيّ هو ذلك الإنسان الصالح الّذي يُؤتَى المُلك من قبل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذا فآدم عليه السلام هو أوّل من خُلق على وجه هذه الأرض، استخلفه الله ليكون حاكماً على خلقه، وهو قائد سياسيّ خلقه الله، ومنحه حقّ التصرّف في هذا الكون، تصرّف الحاكم والمَلِك، ليكون صاحب سلطة سياسيّة على هذه الأرض. ولذلك، فالّذي يفهم من القرآن الكريم أنّ الحكومة والسياسة ولدتا بولادة

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٧.

(٢) سورة آل عمران: ٢٦.

الإنسان على هذه الأرض.

يقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مشيراً إلى هذه النقطة الجوهريّة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة: ٣٠.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

خلافة الأمّة

إنَّ المسيرة التكامليّة للخلافة - كما تُفهم من القرآن الكريم - تبدؤ بالفرد الأصلح، لتنتهي بالمجتمع الصالح؛ أي: المجتمع الّذي استخلفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الأرض، وهي الأمّة الّتي تطبّق حكم الله في الأرض، إنّها الأمّة الخليفة؛ المجتمع الخليفة. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾[1].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[2].

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[3].

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٥.

(٢) سورة البقرة: ١٤٣.

(٣) سورة الحج: ٧٨.

والخطاب القرآنيّ هنا، موجّه إلى الأمّة الخليفة، إلى المجتمع الخليفة الّذي تربّى على يد القائد المنصوب من قبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إلى المسلمين الخاضعين لقيادة الرسول ﷺ المطبّقين لأمر الله جَلَّ وَعَلَا، جعلهم الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شهداء على الناس، وخلائف الأرض؛ أي: خلفاء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأرض، والمجتمع الخليفة، هو ذات المجتمع الصالح التابع لخليفة الله (الإمام الصالح).

الخلافة والشهادة

يقول الحقّ جَلَّ وَعَلَا:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

تُرى ما هي العلاقة بين مفهوم «الخلافة» ومفهوم «الشهادة»؟

إنّ العلاقة بين الخلافة والشهادة علاقة تلازميّة؛ فالخلافة تلازم الشهادة على طول الخط؛ ولكنّ الخلافة تُنسبُ إلى الله جَلَّ وَعَلَا؛ بمعنى الخلافة عن الله، إلاّ أنّ الشهادة تكون على الآخرين (على الناس)، فالخليفة الصالح هو الإمام، والإمام شاهد على أمّته، وخليفة عن ربّه، والأمّة الّتي يربّيها هذا الإمام الصالح؛ أي: الأمّة التابعة للإمام، هذه الأمّة خليفة عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وشاهدة على سائر الأمم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١].

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[٢].

لقد بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قرآنه العظيم أنّه نفّذ سنّة الاستخلاف على وجه الأرض على أمم عديدة؛ منها: بنو إسرائيل الّذين رشّحهم الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لخلافته في الأرض. وبتعبير آخر: رشّح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بني إسرائيل ليكونوا الأمّة الصالحة الّتي تطبّق حكم الله – أمراً ونهياً – باتّباع القائد الإلهيّ الّذي نصبه لهم؛ وهو موسى عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ.

لقد كان موسى القائد الإلهيّ الأصلح الّذي نصب من قبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، فيما كانت أمّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ (بنو إسرائيل) هي الأمة الّتي رشّحت لتطيع القائد، وتطبّق حكم الله في الأرض. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) سورة البقرة: ١٤٣.

(٣) سورة البقرة: ٤٧.

وهذا التفضيل الّذي يشير إليه القرآن الكريم، إنّما هو تفضيل بالسلطة، فالقرآن الكريم في آية شريفة أخرى يحكي كلام موسى عليه السلام لقومه بني إسرائيل قائلاً لهم:

﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ﴾[1].

أي: جَعَلهم ملوكاً إلهيّين، مُنحوا السلطة الإلهيّة، فأصبحت القيادة والإمامة الإلهيّة في بني إسرائيل استجابةً لدعاء إبراهيم عليه السلام.

قال سبحانه وتعالى:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2].

فاستجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء إبراهيم؛ إذ قال:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[3].

فالخلافة والإمامة الإلهيّة أُعطيت لبني إبراهيم؛ ومنهم: بنو إسرائيل؛ أي: بنو يعقوب، ولكن شريطة ألّا يكونوا ظالمين.

---

(١) سورة المائدة: ٢٠.

(٢) سورة الشعراء: ٨٣.

(٣) سورة البقرة: ٤٢١.

والخلافة خلافتان: خلافة الأمّة، وخلافة الإمام، وهذه هي سنّة الاستخلاف (التي أشير إليها بإيجاز).

لقد شاءت إرادة الحقّ جَلَّ وَعَلَا أن تنصب خليفة في الأرض؛ أي: إماماً قائداً يحكم، وأن يربّي هذا الإمام القائد الحاكم أمّة قائدة لغيرها من الأمم؛ حيث تطّبق أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونهيه، وهذه هي الأمّة الخليفة. ثمّ إنه جَلَّ وَعَلَا رشّح - وعلى مدى التاريخ - أمماً لهذه المسؤوليّة الكبرى؛ منهم: أمّة بني إسرائيل، فمكّنهم من تطبيق الحكم الإلهيّ، تحت لواء القيادة الإلهيّة الكفوءة، المتمثّلة في موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأخذ من بني إسرائيل العهد والميثاق على أن يطيعوه، وينصروه، ولا يخذلوه، وهذا هو ميثاق النصرة.

وميثاق النصرة هذا، هو الّذي يبرمه المؤمنون مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإيمانهم؛ حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم﴾[١].

﴿وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[٢].

---

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) سورة الأنفال: ٧٤.

ميثاق النصرة هذا، ميثاق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع المؤمنين؛ أي: أنّ هناك تعاملاً، وعهداً بين الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبين من يؤمن به، يستلزم أن يبذل المؤمن ماله، ونفسَهُ في سبيل الله؛ أي: لنصرة دين الله بماله، ونفسه، وبكلّ ما أوتي، وبما يملك.

هذا هو ميثاق نصرة الجماعة المؤمنة؛ أي: الأمّة الخليفة، الأمّة الّتي أوكل لها تطبيق حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأرض.

يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْلا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أن لا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[1].

فهو يشير عَلَيْهِ السَّلَامُ هنا إلى ميثاق النصرة من قبل الناس الّذين أعلنوا نصرتهم: «وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ»، فكان من الواجب عليه، الاستجابة لهم، وتلبية طلبهم لتقبّل القيام بأعباء هذه المسؤوليّة الخطيرة؛ وهي: الإمامة.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٣، ص ٥٦، طبعة الأعلميّ، بيروت.

ثمّ يصوّر لنا القرآن الكريم أروع تصوير عن تخاذل بني إسرائيل، وتململهم في نصرة الحقّ، وإعراضهم عن الانقياد إلى القائد السياسيّ المنصوب من قبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو موسى عليه السلام، يصوّر لنا القرآن العظيم كيف نقض بنو إسرائيل ميثاق النصرة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - حاكياً قول موسى عليه السلام لهم -:

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ٢١ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٣ قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

مسلسل التداعي هذا، والتخاذل من قبل بني إسرائيل، وعصيانهم للقائد الإلهيّ موسى عليه السلام، يطلق القرآن الكريم عليه مصطلح «نقض الميثاق»؛ إذ يقول الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) سورة المائدة: ٢١-٢٥.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

والقرآن الكريم في سننه التاريخيّة، يبيّن لنا أنّ الأمّة الخليفة، والأمّة القائدة، متى ما نقضت ميثاق النصرة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، نُصرة القائد الأصلح المنصوب من قبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنّه ينفّذ في حقّها قانون آخر، إنّه سنّة الاستبدال. هذه السنّة التاريخيّة المهمّة الّتي تحكيها آيات عديدة شريفة من القرآن العظيم؛ منها: قوله عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾[3].

لقد نقض بنو إسرائيل ميثاق النصرة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، فحاقت بهم سنّة الاستبدال، وكان الذلّ والهوان من نصيبهم. فالذل من نتائج سنّة الاستبدال. يقول الله جَلَّ وَعَلَا - حاكياً عن بني إسرائيل - :

---

(١) سورة المائدة: ١٣.

(٢) سورة محمّد: ٣٨.

(٣) سورة المائدة: ٥٤.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾[١].

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾[٢].

والعزّ والذّل مفهومان أساسيّان يمكن اعتبارهما من المفاهيم الأساسيّة الّتي يبنى عليها تفسير حركة التاريخ، والتطوّر الاجتماعيّ في تاريخ الإنسان، فبمقدار ما يكون العزّ من أمارات سلامة الشخصيّة الاجتماعيّة، واستقامتها، يكون الذّل دليلاً على فسادها، وانحراف صحّتها، وخوائها. وقد اهتمّ القرآن الكريم بهذين المفهومين كثيراً، فأكّد على أنّ من مواصفات المؤمن هو العزّ، ولا يمكن للمؤمن أن يكون ذليلاً قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

فالشخصيّة المؤمنة يستحيل أن تصاب بالمرض الّذي يفرغها من محتواها، ويبدلها إلى خواء فارغ، ولا تصاب الشخصيّة الإنسانيّة - فرداً أو مجتمعاً - بالذّل؛ إلاّ اذا أُفرغت من إيمانها، ومُلئ جوفها نفاقاً، وهذا ما تؤكّده الآيات الكريمة في القرآن العظيم؛ إذ يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) سورة البقرة: ٦١.

(٢) سورة آل عمران: ١١٢.

(٣) سورة المنافقون: ٨.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[1].

وهكذا، أكّد القرآن الكريم على أنّ المنافقين فقدوا العزّ، وأُصيبوا بالذّلّ، فراحوا يبحثون عن سندٍ للعزّ يعتمدونه، فلجؤوا إلى ولاية الكافرين، وخضعوا لهم، فلم يزدهم ذلك إلاّ ذلاً على ذلّهم.

أمّا المؤمنون فإنّهم أعزّة لا يذلّون:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2].

أعلون لا يُغلبون. يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

يَغلبون ولا يُغلبون. قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[4].

لا يهنون، ولا يستكينون، ولا يجبنون، ولا يضعفون،

---

(١) سورة النساء: ١٣٨-١٣٩.

(٢) سورة المائدة: ٥٤.

(٣) سورة آل عمران: ١٣٩.

(٤) سورة المائدة: ٥٦.

ويصمدون في مواقع النزال مع الكفار، ولا ينهزمون. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[١].

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[٢].

وهذا هو الّذي كان يؤكّد عليه الإمام الحسين عليه السلام كثيراً؛ حيث كان يقول:

«مَوْتٌ فِيْ عِزٍّ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِيْ ذُلّ»[٣].

وصرّح به يوم عاشوراء صلوات الله عليه ؛ إذ قال:

«ألا وَإنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَينِ بَيْنَ السِّلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَهَيْهَاتَ مِنَّا الذِّلَّةَ يَأْبَى اللَّهُ لَنَا ذَلِكَ وَرَسُوْلُهُ وَالمُؤْمِنُوْنَ وَحُجُوْرٌ طَابَتْ وَطَهُرَتْ وَأُنُوفٌ حَمِيَّةٌ وَنُفُوْسٌ أَبِيَّةٌ مَنْ أَنْ

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٦.

(٢) سورة الأحزاب: ٢٢.

(٣) بحار الأنوار ٤٤:١٩٢.

تُؤْثِرَ طَاعَةَ اللِّئَامِ عَلى مَصَارِعِ الكِرَامِ»[1].

(١) من خطاب الإمام الحسين عليه السلام أمام الجيش الأمويّ في كربلاء (عاشوراء ٦١ هـ). بحار الأنوار، ج٤٥، ص٨٣. راجع أيضاً: المختار من مقتل الحسين في بحار الأنوار، للمؤلّف، ص١٠٧.

الأمّة المستخلفة

لقد بشّر الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأمّة «الخليفة»، ووعدها بالعزّ والسؤدد. فالأمّة المستخلفة الّتي وفت بعهدها مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في النصرة والطاعة للإمام الإلهيّ، ستنال العزّ والغلبة، ولا ترى الذّل والهوان أبداً. وهذا ما حكاه لنا القرآن الكريم، وأكّدته الآيات الكثيرة؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[2].

ثمّ يؤكّد الحقّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقيقة الترابط بين الإمامة الإلهيّة والملك الإلهيّ، وبين العزّ، في الآية الشريفة:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن

---

(١) سورة المنافقون: ٨.

(٢) سورة المائدة: ٥٦.

تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء﴾[١].

فالمجتمع الصالح الّذي استخلفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الأرض - وهو المجتمع الممتثل لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ونهيه - موعود بالمُلك الإلهيّ المقرون بالعزّ.

أمّا الذلّ فهو قرين الاستبدال، وهو مصير الأمّة الناقضة لميثاق النصرة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والناكثة لعهد الطاعة مع الإمام الإلهيّ، فإنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينزع عنها لباس الملك والسيادة والعزّ، ويحيق بها الهوان والذلّ، وهاتان السُنّتان الإلهيّتان، مستمرّتان على مدى الزمن.

فقد استبدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن بني اسرائيل بأمّة أخرى؛ وهي الأمّة الإسلاميّة، وحاق ببني إسرائيل الاستبدال حين نقضوا عهدهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. يقول عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾[٢].

واستبدل الله عنهم قوماً آخرين؛ وهم المسلمون، فكانت الأمّة الإسلاميّة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس﴾[٣]، فأضحت الأمّة الإسلاميّة الأمّة المستخلفة بجهادها، ووفاءها الأوّل لميثاق النصرة مع الله سُبْحَانَهُ

(١) سورة آل عمران: ٢٦.

(٢) سورة البقرة: ٦١.

(٣) سورة آل عمران: ١١٠.

وَتَعَالَىٰ ورسوله، وإطاعتها للقائد الإلهيّ الّذي هو خليفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؛ وهو الرسول الأعظم ﷺ .



الحسين عليه السلام الإمامة المستخلفة

لقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى على المسلمين وعلى المجتمع الإسلاميّ بالقيادة الإلهيّة؛ وهي قيادة الرسول الأعظم محمّد صلى الله عليه وآله ، وكان من أمر الأمّة الإسلاميّة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أن وفت في بدء أمرها بالميثاق مع الله ورسوله، وقد وفى الله لها بوعده فجعلها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس﴾[1]، فانتصرت على المشركين، وكُبت أعداء الإسلام من اليهود والمشركين الّذين كانوا يكيدون للإسلام في أطراف المدينة، وأرجاء الجزيرة العربيّة، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله رسائل إلى ملوك دول المنطقة، وحكّامها، وبدأت القبائل العربيّة ترسل وفودها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله معلنةً إسلامها، وأُقيمت دولة الإسلام عزيزة غالبة.

غير أنّ هذه الأمّة افتتنت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كما وعد الله سبحانه وتعالى بذلك؛ إذ قال:

---

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[١].

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[٢].

وقد كانت الفتن مريرة وكثيرة، نجا منها أناس قليلون ثبتوا على الحقّ، ووفوا لله ورسوله بالعهد والميثاق، وهم الّذين ثبتوا على طاعة الإمامة الإلهيّة، والوفاء لها في كلّ الظروف والأحوال، وكان من أبرز مصاديق هذه القلّة الوفيّة بالعهد أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، فقد ثبتوا على العهد حتّى النفس الأخير، فقضوا نحبهم مضمّخين بالدّماء أعزّاء، قاهرين غير مقهورين. أمّا الأكثريّة من الأمّة فقد قعدت عن نصرة الله ورسوله، ونقضت ميثاقها مع الله سبحانه وتعالى، ولم تستمرّ في وفائها بعهدها مع الله سبحانه وتعالى ورسوله، وقد تمثّل أوج هذا النقض في قعودها عن نصرة الحسين عليه السلام، عندما استنفر الأمّة بكلّ طاقاتها، وإمكاناتها لنصرة دين الله، وتطبيق أحكام الله سبحانه وتعالى، فتقاعست عن أداء واجب النصرة والوفاء بهذا الميثاق العظيم.

فكان أن حلّ بالأمّة الإسلاميّة ما حلّ بها، حتّى استولى على أمرها الظالمون، فاستباحوا حريمها، وأذاقوها من الذلّ والهوان ما قلّ نظيره في تاريخ الإنسان، حتّى بلغ الأمر بالأمّة الّتي كانت في

---

(١) سورة العنكبوت: ٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٩.

يومها الأوّل عزيزة بطاعتها للقائد الإلهيّ ان يستولى على أمرها الفاسقون والطغاة؛ من أمثال: الحجّاج بن يوسف الثقفيّ، وبني مروان، ونظرائهم، وآل بها الأمر إلى أن أصبحت عرضة لنهب الناهبين، وسطوة الظالمين، وقتل الجبّارين، فهجمت عليها أقوام من الشرق تارةً، فاستباحوا منها كلّ حرمة، وهجمت عليها أقوام من الغرب أخرى، فمزّقتها كلّ تمزيق، واستمرّ هذا الإذلال حتّى يومنا هذا، حتّى أصبحنا - كمسلمين - من أذلّ أقوام الأرض، وأهونهم على الله، لا نملك لأنفسنا نفعاً، ولا ندفع عنها ضرّاً.

يحكمنا شرارنا، ويبالغون في ظلمنا، واستباحة أموالنا، وهتك أعراضنا، ولا نملك أن ندفع عن أنفسنا بشيء، ولا نقدر أن نجلب لأنفسنا نفعاً بأن نستثمر طاقاتنا، وإمكاناتنا، وأموالنا، ونحن من أغنى الأمم في الأرض ثروةً، وأكثرها عدداً.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وفاء الإمامة بالعهد

كانت ثورة الحسين عليه السلام تعني - فيما تعني - أنّ الإمامة قد وفت بعهدها مع الحقّ سبحانه وتعالى، وأنّها نزلت إلى ساحة المواجهة بكلّ زخمها، وثقلها، وما آتاها الله من إمكانات، وبقي على الأمّة أن تفي بالتزاماتها تجاه الله سبحانه وتعالى والامامة الإلهيّة ممثّلة في الإمام الحسين عليه السلام؛ إلّا أنّ الأمّة تقاعست عن أداء واجبها، وخذلت إمامها، ونقضت العهد والميثاق مع الله سبحانه وتعالى، فخذلت قائدها الإلهيّ؛ وهو الحسين عليه السلام، بل واصطفّت إلى جانب أعداء الله سبحانه وتعالى، وأعانتهم على قتل الصالحين، وعلى رأسهم: سيّدهم وسيّد المؤمنين الحسين بن عليّ عليه السلام، فاستشهد مع أهل بيته، وثلّة من أصحابه المخلصين الّذين ثبتوا على العهد، ولم ينقضوا ميثاق النصرة مع الله سبحانه وتعالى.

و بذلك، حلّت سنّة الاستبدال بأمّة الإسلام، واقترن بها الذلّ، والهوان، والشقاق، والنفاق، حتّى يومنا الّذي نحن فيه. وما أصابنا

نحن المسلمين[١] إنّما هو نتيجة قانون الاستبدال الّذي يلازمه الذلّ على مدى الزمن، وإذا أردنا أن نعود إلى ذلك العزّ، لابدّ لنا أن نعود إلى الوفاء بالميثاق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٢].

ليس لنا خيار آخر؛ فلابدّ أن نعود إلى ميثاق نصرة الإمام، ميثاق نصرة الإسلام. علينا أن ننصر دين الله، فإذا نصرناه، أصبحنا حسينيّين، ثمّ إنّ الشعائر الّتي نقيمها في عزاء الحسين جيّدة؛ ولكنّها ليست كافية. لماذا هذه الشعيرة؟ لماذا نكرّر: «يَا لَيْتَنَا كُنَّا مَعَكُم»، أليس في عصرنا اليوم حسين؟ إمام مفترض الطاعة، إنّه صاحب الأمر عَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيف، فلنكن معه. لنقف عند مسؤوليّة كلمتنا، لقد تكرّر فرعون في يزيد، وتكرّر في الحجّاج، وتكرّر في كلّ أدوار الإسلام اليوم، كما ورث محمّد موسى، وورث الحسين محمّداً، وورث صاحب الأمر حسيناً، لقد رشّح الله أمّة موسى لتكون الأمّة الخليفة،

---

(١) والحديث هنا عن الأمّة ككلّ، وليس الحديث عن الأقلّيّة؛ فإنّ هناك أقلّيّة وفيّة في كلّ زمن، كما كان في عصر الحسين عليه السلام.

(٢) سورة التوبة: ١١١.

ورشّح الله أمّة الإسلام لتكون الأمّة المستخلفة. فلو كان هذا الحماس الّذي عندنا يصل إلى درجة النصرة، كان هو المطلوب؛ فالحسين عليه السلام كان يحتاج إلى ناصر، ولهذا نجد الحسين عليه السلام ينادي في صحراء كربلاء:

«هَلْ مِنْ ناصِرٍ يَنْصُرُنا؟».

وهو يعلم أنّه ليس هنالك من مجيب، إنّها الإشارة إلى ميثاق النُصرة. لقد أعلن الحسين عليه السلام أنّه يحتاج إلى أنصار، وما زال يعلن:

«هَلْ مِنْ ناصِرٍ يَنْصُرُنا؟ هَلْ مِنْ ذابٍّ يَذُبُّ عَنْ حَرَمِ اللَّهِ؟ هَلْ مِنْ مُغِيْثٍ يُغِيْثُنا..؟».

إنّ هذه هي مشكلة الأمّة، فمشكلة الأمّة أنّ الإمامة ليس لها ناصر يفي بميثاق النصرة مع الله سبحانه وتعالى. فإنّ الآيات القرآنيّة الكريمة الّتي تصف المؤمنين تصفهم بالنصرة لله ولرسوله؛ يقول سبحانه وتعالى:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

نصروه بميثاق النصرة، وهو الميثاق الّذي يجب علينا أن لا ننساه. إنّ بيننا وبين إمام زماننا، ووليّ أمرنا عجل الله فرجه الّذي هو حسين

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٧.

العصر ميثاق النصرة، فلو بلغنا إلى الدرجة الّتي نفي فيها بهذا الميثاق، فليس هناك ما يستوجب أن يبقى الإمام عليه السلام، غائباً، فلم يخلق الله سبحانه وتعالى الإمام ولم ينصبه لكي يغيب عنّا، إنّما غيّبه نقضنا لميثاق النصرة، كما هي سنّة الله سبحانه وتعالى في القيادات الإلهيّة على مرّ التاريخ.

وهذه هي النقطة الأساس في ما علينا بالنسبة للثورة الحسينيّة؛ وهو أن نفي للحسين عليه السلام، ولرسول الله صلى الله عليه وآله قبل الحسين، ولأمير المؤمنين عليه السلام، ولأئمّتنا عليهم السلام، أن نفي لهم جميعاً بميثاق النصرة.

جعلنا الله سبحانه وتعالى من أنصار أئمّتنا، ومن أنصار الحسين عليه السلام، ومن أنصار وليّ أمرنا، وصاحب عصرنا عجّل الله تعالى فرجه الشريف؛ إنّه سميع مجيب، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

الفهرس


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی